الباب السادس

اختيارهن الشباب والمرد

وتفجع الرجال من جرّاء ذلك على الشباب وذمهم المشيب

وزهد الرجال فى العجائز ، وقولهم فى الخضاب واللحى والصلع

وسائر ما يتصل بهذه المعانى

تفضيلهن الشباب والأغنياء :

قال الشاعر الجاهلى علقمة بن عَبَدَةَ الفحل :

فإنْ تَسْأَلُونى بالنِّساء فإنَّنى ... عَلِيمٌ بأَدْواء النِّساء طَبِيب (١)

إذا شابَ رَأْسُ المرءِ أو قَلَّ مالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ فى وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

يُرِدْنَ ثَرَاء المَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ ... وشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ (٢)

وقال امرؤ القيس :

أراهنَّ لا يُحْبِبْنَ مَنْ قَلَّ مالُهُ ... ولا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فيهِ وقَوَّسَا (٣)

---

(١) فإن تسألونى بالنساء ، أى فان تسألونى عن النساء فالباء بمعنى عن على حد قوله تعالى « فاسأل به خبيراً » .

(٢) شرخ الشباب : قوته ونضارته ، وقال المبرد : الشرخ : الشباب . لأن الشرخ الحد وأنشد : إن شرخ الشباب تألفه البيـــض وشيب القَذَال شىء زهيـــد وقال حسان : إن شرخ الشباب والشعر الأســـود ما لم يعاص كان جنـــوناً « ما لم يعاص ما لم يعص » .

(٣) قوس الشيخ تقويساً : انحنى ظهره .

وقيل لبعضهم : قد كَرِهَت امرأتكَ شَيْبَكَ فَمَالَتْ عَنْكَ ! فقال . إنما مالتْ إلى الأنذال لقلة المال ، والله ، لو كُنْتُ فِي سنِّ نوحٍ ، وشَيْبَةِ إبليس ، وخِلْقَةِ مُنكَرٍ ونَكِيرٍ ، ومعي مالٌ ، لكنتُ أحبَّ إليها مِن مُقْتَرٍ فى جَمالِ يوسُفَ ، وسِنِّ عِيسَى ، وجودِ حاتِم ، وحِلْمِ الأحْنَفِ بن قَيْسٍ . . .

وَكان الحارثُ بنُ سَلِيلٍ الأسَدِى حَلِيفاً لعَلْقَمَةَ بنِ خَصَفَةَ الطَّائى ، فزاره فنظرَ إلى ابنَتِه الزَّبَّاء وكانت مِن أجملِ أهلِ دهرِها ، فقَالَ . أَتَيْتُ خاطِباً ، وقد يُنكَحُ الخاطِب ، ويُدْرَكُ الطالِبُ ، ويُمنح الراغب ، فقال له عَلقَمةُ : أنتَ كُفْءٌ كريمٌ ، يُقْبَلُ مِنك الصَّفْو ويؤخذُ منك العفو ، فأقم تنظُرْ فى أمرك ، ثم انكفأ إلى أمها ! وقال إن الحارث بن سَلِيل سيدُ قومه حسباً ومَنْصِباً وبيتاً ، وقد خطب إلينا الزَّبَّاء ، فلا ينصرفَنَّ إلاَّ بحاجته ، فقالت المرأة لابنتها . أىْ بُنَيَّة . أىُّ الرجال أحَبُّ إليك ، الكَهْلُ الجَحْجاحُ[1] الواصِلُ المنَّاح[2] ، أم الفتَى الوضَّاح ، الذَهُول الطَّمَّاح .[3] قالت . بل الفتى الوضَّاح ، فقالت . إن الفتى يُغِيرُكِ ،[4] وإن الشيخ يَغِيرُكِ ،[5] .

---

(١) الجحجاح : السيد الكريم المسارع إلى المكارم .

(٢) المنّاح : الكثير العطاء .

(٣) الطماح : المعجب بنفسه .

(٤) يغيرك الأولى بضم الياء من الغيرة بفتح الغين أى يتزوج عليك من تغار من منه ، ويَغيرك الثانية بفتح الياء من الغيرة بكسر الغين وهى الميرة والنفع يقال : غار الرجل أهله يغيرهم غيرة وغيارا أى مارهم ونفعهم .

فقالت يا أماه .

إن الفتـــاة تحب الفتى كحب الرعاء أنيقَ الكَلَا[1]

فقالت : يابنية ، إن الفتى شديدُ الحِجَاب ، كثير العتاب ، قالت : يا أماه أخشى من الشيخ أن يدنِّسَ ثيابى ويُبْلِىَ شبابى ويُشْمِتَ بى أترابى ، فلم تزل أمها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوج بها الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم فابتنى بها . ثم رحل بها إلى قومه ، فإنه لَجَالسٌ ذاتَ يوم بِفِنَاء قومه وهى إلى جانبه إذْ أقبلَ شَبَابٌ من بنى أسَد يعْتاجون ؛ [2] فتنفَّست ثم بكت ، فقال لهـــا : ما يُبكيك ؟ فقالت : مَالى وللشيوخ ، الناهضينَ كالفُرُوخ ! ، فقال : ثَكلتْكِ أمُّك . « تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تأكل بِثَدْيَيْهَا »[3] . فذهبت مثلا — أمَا وأبيكِ لرب غازةٍ شَهِدْتها ، وسَبِيَّةٍ أردفتها ، وخمرةٍ شربتها ، فألحقى بأهلك ، لا حاجة لى فيك .

* * *

وكان لبعض الأعراب امرأة لا تزال تُشَارُّهُ ، [4] وقد كان أسَنَّ وامتنع من النكاح — الوطء — فقال له رجل . أليس هنا سبيل للصلح بينكما ؟ فقال . لا ، إنه قد مات الذى كان يُصْلِحَ بيننا . . .

---

(١) الكلا مخفف كلأ وهو العشب والكلأ الأنيق : الحسن المعجب ، والرعاء : جمع راع .

(٢) يعتلجون : يتصارعون.

(٣) معنى المثل لا تكون ظئراً — مرضعاً — وإن أذاها الجوع والمثل يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب .

(٤) تشاره من الشر أى تخاصمه وتعاديه .

وقال غيره فى هذا المعنى :

لَمْ تُوافِقْ طِباعُ هذى طِباعِى ... فأنَا وَهْى دَهْـــرَنا فى صِراع
وتَحَرَّيتُ أنْ أنَالَ رِضاها ... فأبَتْ غير جَفْوَةٍ وامْتِناع
فتفكَّرْتُ لِم بُلِيتُ بهذا ... فإذا أنَّ ذا لضعفِ المتاعِ

وممَّن أفتن فى وصف مَتاعه بالضعف والفتور والوهن ورثائه إياه أبو حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب ، قال :

وضاحـــكةٍ إلىَّ من النِّقاب ... تلاحظُنى بنظْرة مُسْتَرَاب
كَشَفْتُ قناعَها فإذا عجوزٌ ... مُسَوَّدَةُ المَفارقِ بالخضاب
فمـــا زالت تُحَمِّسُنى طويلا ... وتأخذ فى أحاديث التصابى[1]
تُحـــاوِلُ أن تُقيمَ أبا زيادٍ ... ودُونَ قِيامِهِ شَيْبُ الغُرَاب
فقلتُ لها : حلأتِ بِشرّ وادٍ ... كَرِيهِ المُجْتَنَى قَحْطِ الجناب
أتَتْ بِجِرَابِها تَكتالُ فيه ... فقامَتْ وهى فارغَةُ الجراب

وقال :

كأنَّ أيْرِىَ مِن لين مَقْبِضِهِ ... خَرِيطَةٌ قد خَلَت من الكُتُب
كأنَّهُ حَيَّـــةٌ مُطَوَّقَةٌ ... قد جَعَلت رأسها مع الذنَبِ

وقال :

أيْرٌ تَعَفَّفَ واسترخَتْ مفاصله ... مثلُ العجوزِ حَناها شدَّةُ الكِبَرِ
يقومُ حين يريد البول منحنياً ... كأنَّهُ قوس نَدَّافٍ بـــلا وَتَرِ
ولا يقوم إذا نَبَّهْتَـــه سَحَراً ... كما تقوم أيُورُ الناسِ فى السَّحَرِ

---

(١) التحميسُ : المغازلة .

وقال :

ينامُ عَلَى كَفِّ الفتاة وتارةً ... له حركات ما يُحِسُّ بها الكفُّ

كما يرفع الفرخُ ابن يومين رأسه ... إلى أبويهِ ثم يُدركه الضعفُ

قناةٌ غَـــدَت معقوفةً أو كأنه ... رِشاءٌ على رأس الركيَّةِ مُلتَفُّ

* * *

يكتفى بهذا المقدار من أبيات ابن حكيمة وهي كثيرة اشتهرت كاشتهار طيلسان بن حرب

وقالَ بَعضُهم : خرجتُ إلى ناحية الطُّفاوَةِ ، فإذا أنا بامرأة لَمْ أرَ أجملَ منها ، فقلت : أيَّتُها المرأة ، إن كان لكِ زَوجٌ فبارَكَ اللهُ لهُ فيكِ ، وإلا فأعلميني فقالت : وما تَصْنَعُ بِي وفيَّ شيءٌ لا أراكَ ترتَضِيهِ ، قلتُ : وما هُوَ ؟ قالَتْ : شَيْبٌ فِي رأسِي ؛ قال : فثَنَيْتُ عِنانَ دابتي راجعاً ، فصاحَتْ بِي : على رِسلكَ أُخبِرْكَ بشيء ، فوَقَفْتُ ، وقلتُ : وما هو يرحمكِ اللهُ ، قالت : واللهِ ما بَلَغْتُ العشرينَ بَعْدُ ، وهَذا رأسِي ، فكَشفَتْ عن عناقيدَ كالحُمَم ، قالت : واللهِ ما رأيت برأسِي بياضاً قَط ، ولكن أحْبَبْتُ أن تعلم أنَّا نَكرَهُ مِنْكَ ما تكرَهُ مِنَّا ، وأنشدَتْ :

أرَى شَيْبَ الرِّجالِ من الغَوانِي ... بِمَوقِعِ شَيْبِهِنَّ مِنَ الرِّجالِ

قال : فرجَعتُ خَجِلاً كاسِفَ البالِ .

«قولُ الشاعر : أرَى شيب الرجال من الغوانى ... البَيْتُ مِثْـــلُهُ قول منصور النَّمرى :

كرِهْنَ من الشيب الذى لو رأَيْنَه ... بهن رأيتَ الطَّرْفَ عنهن أزْوَرَا

وقال كسرى أنوشروان : كنت أخاف إذا أنا شِخْتُ لا تريدنى النساء ؛ فإذا أنا لا أريدهن . . .

ويقول أبو حَيَّة النُّمَيْرِىّ :

رَمَتْنِى وسِتْرُ اللهُ بينى وبينها ... عَشِيَّةَ آرامِ الكِناسِ رَمِيمُ[1]

رَمِيمُ التى قالت لجارات بيتها ... ضَمِنْتُ لكم أن لا يَزالُ يَهِيمُ[2]

ألا رب يوم لو رَمَتْنى رميتها ... ولكنَّ عهدى بالنِّضال قديم

« ستر الله هو الشيب وقيل : ما حَرَّم الله عَلَيْهَا ، وقيل : الإسلام ، والآرام جمع إرم كعنب ، وهى : الحجارة تُنْصَب علماً فى المَفَازَة يُهتَدَى بها ، والكناس : الموضع الذى تأوى إليه الظباء والبقر ، ورميم فى آخر البيت الأول فاعل رمتنى وهو اسم جارية — فتاة — يقول النميرى : رمتنى بطرفها وأصابتنى بمحاسنها ولو كنت شاباً لرميتُ كما رُميت وفَتَنتُ كما فُتِنت ولكن قد تطاول عهدى بالشباب » .

ويقول ابن المعتز :

لقد أَبْغَضْتُ نَفْسى فى مَشِيبِى ... فكيف تُحِبنِى الخَوْدُ الكَعَابُ[3]

وقال ابن الرومى :

إذا ما رأتْكَ البِيضُ صَدَّتْ ورُبَّما

غَدَوتَ وطَرْفُ البِيضِ نحوكَ أَصْوَرُ[4]

وما ظَلَمَتْك الغانياتُ بِصَدِّها ... وإنْ كانَ فى أَحْكامِها ما يُجَوِّرُ[5]

---

(١) ويروى هذا العجز « عشية أحجار الكناس رميم » . قال ابن الأعرابى : أراد عشية رمل الكناس وهو رمل فى بلاد عبد الله بن كلاب ، فلم يستقم له الوزن فوضع الأحجار موضع الرمل .

(٢) وأن لا يزال فأن مخففة من الثقيلة والأصل أنه لا يزال يهيم .

(٣) الخود : المرأة الجميلة .

(٤) أصور : مائل .

(٥) يجور ينسب إلى الجور — الظلم —

أعِرْ طَرْفَك المِرْآةَ وانظر فإنْ نَبَا ... بعينَيْكَ عنك الشَّيبُ فالبيضُ أعْذَرُ
إذا شَنِئَتْ عينُ الفتى شَيبَ نفسِه ... فَعَيْنٌ سِواهُ بالشَّناءةِ أجْدَرُ (١)

وقال أبو دُلَفَ العِجْلِيّ :

نَظَرَتْ إليَّ بعَيْنِ مَن لم يَعْدِلِ ... لمَّا تَمَكَّنَ طَرْفُها مِن مَقْتَلِي
لمَّا تَبَسَّمَ بالشَّيبِ مَفارِقي ... صَدَّتْ صُدُودَ مُفارِقٍ مُتَحَمِّلِ
فجَعاتُ أطْلَبُ وَصْلَها بتَعَطُّفٍ ... والشَّيبُ يَغْمِزُها بأنْ لا تَفْعَلِي

وأنشدوا :

رأيتُ الشَّيبَ تَكْرَهُهُ الغَوانِي ... ويُحْبِبْنَ الشَّبابَ لما هَوينا
فهذا الشيبُ نَخْضِبُهُ سَوادًا ... فكيف لنا فنَسْتَرِقُ السِّنينا

وقالوا :

ألا رُبَّ حَوراءِ المحاجِرِ طَفْلَةٍ ... تُزَفُّ إلى شَيْخٍ من القَومِ تِنْبالِ (٢)
يقولون : جَرَّتْها إليه قَرابَةٌ ... فوَيْلُ الغَوانِي مِن بَنِي العَمِّ والخالِ

وفي الأثَرِ (أنَّ شابَّةً زُوِّجَتْ شَيْخًا ، فقَتَلَتْه ، فقال عُمَرُ بنُ الخطاب : لِيَنْكِحِ الرَّجُلُ لُمَتَهُ من النساء ، ولتَنْكِحِ المرأةُ لُمَتَها من الرجال . . .

« اللُّمَة : المِثْلُ في السِّنِّ والتِّرْبُ ، كأنَّ عُمَرَ كَرِه للشابِّ أن يَتزوَّجَ المُسِنَّةَ وللمُسِنِّ أنْ يتزوَّجَ الشابَّة » .

* * *

---

(١) الشناءة : البغض .

(٢) الطَّفْلة : الرخصة الناعمة ، والتنبال : القصير . والبليد الكسلان .

ومنهن من يُفَضِّل الكهول :

ومِن النّساء مَن رَجحَ عقلهن على هواهُنَّ وآثرن الكهول على الشُّبان .

قالت تماضِرُ امرأةُ عبد الرحمن بن عوف لِعُثمانَ رضى الله عنه : هل لكَ فى ابْنَةِ عَمٍّ لى ، بِكْرٍ جَمِيلَةٍ ، مُمْتَلِئَةِ الخَلْقِ ، أسيلَةِ الخَدِّ ، أصيلَةِ الرأى ، تَتَزَوَّجُها ؟ قال : نَعَم ، فذَكَرَت له نائلَةَ بنت الفَرافِصَةِ الكلْبِيَّة ، فتَزَوَّجَها وهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ ، فتحَنَّفَتْ وَحُمِلَتْ إليه من بلاد كلب مع أخيها ضَبّ — وكان مسلماً — فلما دَخَلَتْ عليه قال لها : لَعَلَّكِ تَكْرَهِينَ ما تَرَيْنَ من شَيْبِي ؟ قالت : والله ياأميرَ المؤمنين ، إنِّى لَمِنْ نِسْوَةٍ أَحَبُّ بُعولَتِهِنَّ إليهنَّ الكُهول ! قال : إنِّى قد جُزْتُ الكهول ، وأنا شَيْخ ، قالت : أَذْهَبَتْ شبابُكَ مع رسول الله ﷺ فى خير ما ذَهَبَتْ فيه الأعمار ! قال عثمان : إمَّا أَنْ تقومى إلَىَّ وإمَّا أن أقومَ إليك ، فقالت : ما تَجشَّمْتُ إليكَ من عُرض السَّماوَة أَبْعَدُ مِمَّا بيننا ، بل أقوم أنا ، فقامَت حتى جَلَسَت معه على السَّرير ، فقال : اطرحِى درعَكِ ، ثُمَّ اطرحى إزارَكِ ؛ قالت : ذاك إليك ، وَمَسَح رأسها ودعا لها بالبركة ، فكانت أَحَبَّ نسائِهِ إليه ، ولم تَزَل نائلةُ عند عثمانَ حتى قُتِلَ ، فَلَمَّا دُخِلَ إليه وَقَتَهُ بيَدِها ، فَجُذِمَتْ — قُطِعت — أناملُها ، فأرْسل إليها مُعاوِيَةُ بعد ذلك يَخْطُبُها ، فأرسلَت إليه : ما تَرْجو من امرأةٍ جذماء ! وقيل إنها قالت لمَّا قُتِلَ عُثمان : إنِّى رأيتُ الحُزنَ يَبْلِى كما يَبْلِى الثوب ، وقد خَشيتُ أن يَبلَى حُزن عثمانَ من قلبى ! فدعَتْ بِفِهر ، فَهَتَمَتْ فاها ، وقالت : والله لا قَعَد أحدٌ منى مَقْعدَ عُثمانَ أبدًا !

* * *

وقيل لامرأة : أما تكرهين شيب زوجك ! فقالت : إنه نشأ فينا ، وإنما تكره المرأة الرجل الشاب إذا كان غريباً ورأته بديهة ...

وقالت امرأة : لا يعجبني الشاب يمعج معج المهر ، طلقاً أو طلقين (١) ثم يربض بناحية الميدان . . . ولكن أين أنت من شيخ يضع قبّ استه بالأرض ثم سحباً وجرّاً (٢) . . .

كما أن من النساء والرجال من يفضل الفقراء على الأغنياء :

وحسبك فى هذا الباب ما كان من أحد الفقهاء السبعة بالمدينة سيد التابعين من الطراز الأول العالم المحدّث الفقيه الزاهد العابد أبو محمد سعيد بن المسيّب المتوفى سنة ٩٣ هـ ، فقد خطب إليه ابنته عبدُ الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد ، فأبى سعيد أن يزوّجه ، وقد لاقى الألاقى من جرّاء هذا الإباء ، ودُعِى إلى نيّف وثلاثين ألفاً ليأخذها ، وقال : لا حاجة لى فيها ولا فى بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم ، قال ابن خلكان فى ترجمته بعد هذا : وقال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدنى أياماً ، فلما جئته قال : أين كنت ؟ قلتُ : تُوفيت أهلى ، فاشتغلتُ بها ، فقال : هلاّ أخبرتنا فشهدناها ! قال أبو وداعة : ثم أردتُ أن أقومَ ، فقال : هل أحدثتَ امرأةً غيرها ؟ فقلت : يرحمك الله ، ومَن يزوّجنى وما أملكُ إلاّ درهمين أو ثلاثة ! فقال : إنْ أنا فعلتُ تفعل ؟ قلت : نعم ، ثم حمدَ الله تعالى وصلّى على النبىّ ﷺ وزوّجنى على درهمين ، أو قال : على ثلاثة ، قال :

---

(١) معج الفرس : كان سريع السير سهلَه ، والطلق : الشوط الواحد فى جرى الخيل .

(٢) القِب : العظم الناتئ من الظهر بين الأليتين .

فقمتُ وما أدْرِى ما أصنَع من الفرح ، فصِرْتُ إلى منزلى ، وجعلت أتفكّرُ ممَّن آخذ وأستدين ! وصليت المغرب وكنتُ صائمـــا ، فقدَّمتُ عشاى لأُفطِر — وكان خُبْزًا وزيتًا — وإذا بالباب يقرَع ، فقلت . مَن هذا ؟ قال . سعيد ، ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلاَّ سعيد بن المُسَيَّب ، فإنَّه لم يُرَ منذ أربعين سنة إلاَّ ما بين بيته والمسجد ، فقمت وخرجت وإذا بسعيد بن المسيَّب ، فظننت أنَّه قد بَدَا[1] له ، فقلت . يا أبا محمد ، هَلا أرسلتَ إلىَّ فآتيكَ ! قال : لا ، أنت أحَقُّ أن تُؤْتَى ! قلت . فما تأمُرُنى ؟ قال . رأيتُكَ رَجلا عَزَبًا قد تزوَّجْتَ[2] فكرهتُ أنْ تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، وهذه خادِم تخدمكم ، معها ألف درهم نفقة لكم ، فخُذها يا عبدَ الله بأمانة الله ، فو الله إنَّك لتأخُذُها صوَّامَةً قوَّامَةً عارفةً بكتاب الله وسُنَّةِ رسول الله فاتَّقِ الله فيها ولا يَمْنَعك مكانُها منى إن رأيت منها ما تكْرَهُ أنْ تحسِّنَ أدبَها ، ثُمَّ سلَّمَها إلىَّ ، ثم صعدت إلى السطح ، فناديت الجيران ، فجاءونى ، وقالوا : ما شأنُك ؟ فقلت : زوجنى سعيد بن المسيب اليومَ ابنَته ، وقد جاء بها على غفلة ، وها هى فى الدار ، فنزلوا إليها ، وبلغَ أُمّى ، فجاءت وقالت : وَجْهى مِن وَجهك حرام إنْ مَسَسْتَها قبل أنْ أُصلِحَها ثلاثةَ أيام ، فأقمتُ ثلاثا ، ثم دخلتُ بها ، فإذا هى مِن أجمل النساء وأحفظهم لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسُنَّة رسول الله ﷺ وأعرَفِهم بحَق الزَّوج ، قال أبو وداعة ، فمكث — سعيد —

---

(١) يقال : بدا لى بداء : أى تغير رأيى على ما كان عليه وهنا يريد أبو وداعة بقوله فظننت أنه قد بَدَا له أن رأى سعيد تغير وبدا له أمر آخر فى تزويج وداعة بنته .

(٢) يريد : قد عُقِد عقدك على امرأة هى بنت سعيد .

شهرًا لا يأتيني ولا آتيه ؛ ثم أتيته بعد شهر ، وهو في حَلْقَته ، فسلَّمت عليه ، فرَدَّ عليَّ ولم يُكلِّمْني . حتى انفضَّ مَن في المجلس ، فلما لم يَبقَ غيري وغيره قال : ما حالُ ذلك الإنسان ؟ قلتُ : هو على ما يُحِبّ الصَّديق ويكرَه العَدُوّ ، وكان سعيد كثيرًا ما يسألني عنها . . فأقول : بخير . فيقول : يا عبدَ الله ، إنْ خَفَّ عليك أن تَزورناها فافعلْ ؛ فلما حَضَر وِلادُها خرجْتُ لأَنظُرَ في بعض ما ينظُر فيه الرجُلُ لأهله ؛ ورَجَعْتُ إلى الدار وإذا بها شخصٌ ما رأيتُه قطُّ فرجَعْتُ مُوَلِّيًا ؛ فنادَتْني مِن ورائي : يا عبد الله ، ادْخُلْ ، فقد أحلَّ الله لك هذه النَّظرة ؛ فقلت : ومن أنت يرحمُك الله ؟ قالت : أنا أُمُّ الفتاة يا عبد الله ، كيف رأيتَ أهلك ؟ قلت : جزاكم الله من أهل بيت خيرًا ، لقد ربَّيْتُمْ فأحسَنْتُمْ ، وأدَّبتم فأحكمْتُمْ ، فقالت : يا عبد الله ، لا يمنَعْكَ مكانُها منا أن ترَى بعضَ ما تكره فتُحَسِّنَ أدَبها ، يا عبدَ الله ؛ لا تُملِّكْها من أمرِها ما جاوَزَ نفسَها ، فإنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة .

زهدهم في المجائز :

قال أعرابي :

لَا تَنْكِحَنَّ الدَّهْرَ مَا عِشْتَ أَيِّمًا ... مُخَرَّمَةً قَدْ مُلَّ مِنْهَا وَمَلَّتِ (١)

---

(١) أزاره حمله على الزيارة

(٢) لا تنكحن : لا تتزوجن ، والأيم : التي مات عنها زوجُها ، ومُخَرَّمة : كثر الدعاء عليها بأن يخترمها الموت ويستأثر بها ، ومُلّ منها ومَلّت يريد أنّها طعنت في السن وقضت مآرب الشهوات وقضت منها .

تَحُكُّ قَفَاهَا مِنْ وَرَاءِ خِمَارِهَا ... إِذَا فَقَدَتْ شَيْئًا مِنَ الْبَيْتِ جُنَّتِ (١)

تَجُودُ بِرِجْلَيْهَا وَتَمْنَعُ دَرَّهَا ... وَإِنْ طُلِبَتْ مِنْهَا الْوَدَاعَةُ هَرَّتِ (٢)

وقال آخر :

أُلَامُ عَلَى بُغْضِي لِمَا بَيْنَ حَيَّةٍ ... وَضَبْعٍ وَتِمْسَاحٍ تَفَشَّاكَ مِنْ بَحْرِ (٣)

تُحَاكِي نَعِيمًا زَالَ فِي قُبْحِ وَجْهِهَا ... وَصَفْحَتُهَا لَمَّا بَدَتْ سَطْوَةُ الدَّهْرِ (٤)

هِيَ الضَّرَبَانُ فِي الْمَفَاصِلِ خَالِيًا ... وَشُعْبَةُ بِرْسَامٍ ضَمَمْتَ إِلَى النَّحْرِ (٥)

---

(١) تحك قفاها ، أى لما فيها من القمل ، يريد أنها غير نظيفة فلا تكشف رأسها ولكن تحكه وراء الخمار ، وقوله : إذا فقدت شيئا من البيت جنت أى إذا فقدت مالا خطر له كان عندها كالشيء الذى لا عوض منه .

(٢) قال التبريزى : هذا يجوز أن يكون مثلا لقلة خيرها ، فشبهها بالشاة التى تعالج رجليها فإذا أريد حلبها منعت ، ويجوز أن يكون المراد إن قعدت عن الولادة فهى تساعد فى الجماع ولا تحمل ولا تلد ، أراد بهرّت : كرهت وتقضّبت .

(٣) جمع بين الحية والضبع والتمساح لأنه لا يقصد التشبيه من وجه واحد و إنما يريد التشبيه من وجوه كثيرة من الخلق والخُلُق . وتفشاك أى التمساح ، أى أتاك .

(٤) يقول : تحاكى فى قبح وجهها قُبح زوال النعمة كما قيل فى المثل « أقبح من زوال النعمة » ثم شبه صفحتها — أى عُرض وجهها — بسطوة الدهر والسطو : البسط على الإنسان بقهره من فوق واصله : البطش والقهر .

(٥) البرسام : التهاب فى الحجاب الذى بين الكبد والقلب ، يقول : إذا خلوت بها كانت خلوتها كَمَوجَان العروق بالألم فى مفاصل المنقرس — المصاب بالنقرس — داء يأخذ فى الرِّجل وهو ورم يحدث فى مفاصل القدم وفى إبهامها البَثْر — و إن جذبتها إلى نفسك فاسيت منها ما يقاسى المُبَرْسَمُ .

إذَا سَفَرَتْ كانَتْ لِعَيْنِكَ سُخْنَةً ... وَإنْ بُرْقِعَتْ فالفَقْرُ فى غايَةِ الفَقْرِ (١)

وَإنْ حَدَّثَتْ كانَتْ جَمِيعَ مَصائِبٍ ... مُوَفَّرَةٍ تَأْتِى بِقاصِمَةِ الظَّهْرِ (٢)

حَدِيثٌ كَقَلْعِ الضِّرْسِ أوْ نَتْفِ شارِبٍ

وغَنجٌ كَحَطْمِ الأنْفِ عِيلَ بِهِ صَبْرِى (٣)

وتَفْتَرُّ عَنْ قُلْحٍ عَدِمْتُ حَدِيثَها ... وَعَنْ جَبَلَىْ طَيٍّ وَعَنْ هَرَمَىْ مِصْرِ (٤)

وقال أعرابىّ :

لا تَنْكِحَنَّ عَجُوزاً إنْ دَعَوكَ لَها ... وإن حَبَوْكَ على تَزْوِيجِها الذَّهَبَا (٥)

وإن أَتَوكَ وقالوا إنَّهـــا نَصَفٌ ... فإنَّ أَمْثَـــلَ نَصْفَيْها الذى ذَهَبَا (٦)

« النَّصَف : المرأةُ الوَسَطَ بين الحَدَثَة والمُسِنَّة ، وقيل : هى التى بلَغَت خمسين سنةً » .

وقال بعضهم : إنَّ خَيْرَ نِصْفَىِ الرَّجُل آخِرُهُما ، يَذهَبُ جَهْلُه ، ويَثوب

---

(١) سُخْنَةُ العين نقيض قرتها ويقال : أسخن الله عينه : إذا أبكاه ، وقوله : فالفقر فى غاية الفقر ، يعنى إذا تناهى الفقر حتى لا يكون وراءه شر منه .

(٢) قاصمة الظهر : الداهية .

(٣) الحطم : كسر الشىء اليابس ، وعيل به صبرى : غُلِب .

(٤) تفتر : تبتسم ، والقلح : أى الأسنان المصابة بالقَلَح وهو صفرة فى الأسنان .

(٥) فى حماسة أبى تمام بدل إن دعوك لها إنْ أُتِيتَ بها ، وبدل قوله وإن حبوك الخ . واخْلَعْ ثيابك منها معناً هرباً . قال التبريزى : قوله واخلع ثيابك منها يجوز أن يكون مثل قول امرئ القيس فَسُلِّى ثيابى مِن ثِيَابِكِ تَنْسُلُ — ويجوز أن يكون معناه : تَشَمَّرْ وتَخَفَّفْ ، ومعنى منها أى من أجلها ، وقوله هرباً أى هارباً .

(٦) أمثل نصفيها أى أصلحهما يقال : فلان أمثل من فلان أى هو أوفى إلى الخير منه وأماثل القوم خيارهم .

حلمه ، ويجتمع رأيه ، وإنَّ نِصْفَي المرأة آخِرُهما ، يَسُوء خُلُقُها ، ويَحِدُّ لسانُها وتَعْقُم رَحِمُها . . .

* * *

وقال الأطباء : نِكاحُ العَجوزِ سُمٌّ من السُّمُوم ، يُفْنِي البَدَن ، ويُورِثُ الهمَّ والحُزن . . .

وقالوا : لا تأكل ولا تركب ولا تَنكح إلاَّ فَتِيًّا .

وقالوا : مُضاجَعَةُ العجوز يُخاف منها مَوتُ الفُجاءة . . .

* * *

ولَمَّا أَسَنَّتْ رَمْلَةُ بنتُ عَبد الله بن خَلَف — وكانت ضَرَّةً لِعَائِشَةَ بنت طَلْحَةَ عند عُمَرَ بنِ عُبَيْدٍ — جَعَلت تَتَجَنَّبُهُ فى مِثْل أيام أقْرائِها — حيْضَاتِها — تُرِيه أنَّها فى سِنِّ مَن تَحِيض — مع أنها مُسِنَّةٌ لا تحِيض — فقال بعض الشُّعراء في ذلك :

جَعَلَ اللهُ كلَّ قَطْرَةِ حَيْضٍ فَطَرَتْ منكِ فى حَمالِيقِ عَيْنِي

وقَدَّمَت امرأةٌ زَوجَها إلى زياد بن أبيه تُنَازِعُه ، وقد كانت سِنُّه أعْلَى من سِنِّها ، فجعلت تَعيبُ زَوجَها وتقَع فيه ، فقال زَوجُها : أيُّها الأمير ، إنَّ شَرَّ شَطْرَى المرأة آخِرُها ، وخيرَ شطرَى الرجل آخِرُه ، المرأة إذا كَبِرَت عَقِمَت رَحِمُها وحَدَّ لِسانُها ، وساء خُلُقُها ، وإنَّ الرجل إذا كَبِرَت سنُّه استحكم رأيه وكثُرَ حِلمُه وقَلَّ جهله .

وقال أعشى هَمْدان لامرأته : إنَّكِ لَسَلِسَةُ النُّقْبَةِ ، سَرِيعَةُ الوَثْبَة ،

حَديدَةُ الرَّكبَة ، فقالت والله إنَّك لسريع الإراقـــة ، بَطيء الإفاقة ، قليل الطاقة ، فطلّقها وقال :

تَقادَمَ عَهدُكِ أُمَّ الخُـــلال ... وطاشت نِبالُكِ عند النِّضال
وقَد بُتَّ حَبلَكِ فاستَيقِني ... بأنْ طرحتُكِ ذاتَ الشِّمال
وأن لا رجُوعَ فـــلا تُكذِبِي ... نَ ما حَنَّتِ النيبُ إثرَ الفِصال

وطَلَّق بعضهم امرأته فقالت له : بعد صُحْبَة خمسين سنة ! فقال : مالَكِ عندى ذنبٌ غيرُه ..:.

وقال شاعرٌ — وقد عاتبَتْهُ امرأته هَوًى له — :

ويكِ إنَّ اللامَ يُغرِى المَلُوما ... ليس جُرْمى كما زعمتِ عَظيما
إن أَكُن عاشقاً فلم آتِ إلاَّ ... ما أتتهُ الرجالُ قبـــلى قديما
إنمـــا يكثرُ التعجُّبُ ممَّن ... كانَ مِنْ فِتنَةِ النساء سليما

وقال عبد الله بن محمد بن يَسير[1] : عَلِقَ أبى جارية — فتاة — لبعض الهاشميين ، فبعثت إليه أمِّى تعاتِبُه فكتب إليها :

لا تَتْبَعَنْ لَوْعَةً إثرى ولا هَلَعَا ... ولا تُقاسِنَّ بَعدِى الهمَّ والجَزَعَا
بَلِ انْسَى تَجدِى إن ائتسيتِ أُسًى ... بمثل ما قد جُزِعْتِ اليومَ قد فُجِعَا[2]
ما تصنَعِينَ بعينٍ عنكِ طامحَـــةٍ ... إلى سواكِ وقلبٍ عنكِ قد نَزَعَا

---

(١) محمد بن يسير : شاعر من شعراء الدولة العباسية وعبد الله ابنه شاعر كذلك ، وهو غير محمد بن بشير الخارجى العدوانى الشاعر أيضاً .

(٢) يقول : ما حدث لك منى حدث لكثيرات ، فاتركى الهم وليكن لك أسوة بمن قد فجع بمثل ما فجعت به .

إن قلتِ قد كنتُ فى وُدٍّ وتكرمةٍ ... فقد صَدَقْتِ ولكن ذاك قد مُنِعَا
وأىُّ شىءٍ من الدنيا سمعتِ به ... إلا إذا صارَ فى غاياته انقطعَا
لم تُبقِ عَيْنًا حُسَينٍ عند لحظهما ... لغيرها فى فؤادى بعدَها طمعَا
وهل يُطَاقُ مُذَكٍّ عِندَ صَبْوَتِه ... ومن يقومُ لمَسْتور إذا خلُعَا

« قوله : وأىُّ شىءٍ من الدنيا . . . البيت ، مثلُهُ قولُ العرَبِ « مَنْ بلغَ غايةَ ما يحبُّ فليتوقعْ غايةَ ما يكرَه » .

وقول الشاعر :

إذا تم أمرٌ دَنا نقصُهُ ... توقعْ زوالا إذا قيل تم[1]

وقوله : لم تبق عينا حسين . . . البيتَ فلعلَّه يَكْنِى بحسين عن خليلته وقد جَرَتْ عادتُهم بأن يُكنُوا عن الحبيب بمذكّر .

وقوله : وهل يُطَاقُ مُذَكٍّ . . . البيتُ ، فالمذكّى من الدواب : الذى أتى عليه سنة بعد قُروح ، وذكّى : أسَنَّ وكبر ، ومثل هذا البيت قول الحارث بن وَعْلَةَ :

الآنَ لما ابيضَّ مَسْرُبَتى ... وعَضَضتُ من نابى على جِذْمِ[2]

---

(١) قبل هذا البيت :

هُمومكَ بالعيش مقرونةٌ ... فما تقطع العيش إلا بِهَمّ
وحلوة دنياك مسمومة ... فما تأكل الشَّهْدَ إلا بسَمّ

(٢) المَسْرُبة : الشعر المستدق الذى يأخذ من الصدر إلى السرة ، وجذم الأسنان . منابتها يقول : كبرت حتى أكلت على جذم نابى .

وحلَبت هذا الدهرَ أشطرَهُ وأتيتُ ما آتى على عِلْمِ[1]
ترجُو الأعادِى أن أُسالِمَها جهلاً توهُّمَ صاحِبِ الحُلْمِ

وقول صالح بن عبد القدوس :

والشيخُ لا يَتركُ أخلاقَه حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسِه
إذا ارعوى عاد إلى غَيِّه كذِى الضَّنَى عاد إلى نُكْسِه

وقول الآخر :

أتروض عرسك بعد ما هَرِمت ومن العَنـــاء رياضةُ الهَرِمِ

« العرس : الزوجة » ورجل مستور وستير : عفيف ، وخلُع الرجل خلاعة فهو خليع إذا تشطَّر وخبُث واستهتَر وصبًا حتى لكأنه خلع رَسَنَهُ ، أوخلعته عشيرتهُ وتبرَّءوا منه »

وحدَّثَ بعضهم قال : كُنَّا بمجلس لنا بالبصرة ومعنا خالد بن صَفوان إذ جلس إلينا أعرابىٌّ من بنى العَنبر ، فتذاكرنا النِّساء فقال خالد : خيرُ النساء التى احتَنَك سنُّها واستحكم رأيها ، وخمص بطنها وعظمت عَجيزَتها وملأت حضْنَ مُعانِقِها ، فقال الأعرابى : دع عنك التى استحكم رأيها وعليك بها حين أكعَبَتْ إلى أن أنْهَدَت ، غِرَّةٌ لا تدرى ما يُرادُ بها ، وأنشأ يقول :

عليك أبا صفوانَ إن كنت ناكحاً فتاةَ أناسٍ ذاتَ إتْبٍ ومِئزرِ[2]

---

(١) يقال : حلب فلان الدهر أشطره أى : خبر ضروبه يعنى أنه مر به خيره وشره وشدته ورخاؤه ، تشبيهاً بحلب جميع أخلاف الناقة ما كان منها حفلا وغير حفل ودارّا وغير دارّ ، وأصله من أشطر الناقة ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وقيل : أشطره : دِرَرَه — جمع دِرَّة — سيلان اللبن —

(٢) الإتب : القميص ليس له كُمَّان ، والمئزر : الإزار .

لها كَفَلٌ وافٍ وبَطْنٌ مُعَكَّنٌ وأُخْتُمُ مثل القَعْبِ غيرُ مُنَوَّرِ (١)

وفى معنى قوله غِرَّة لا تدرى ما يراد بها يقول المجنون :

وعُلِّقْتُ ليلَى وهْىَ غِرٌّ صغيرةٌ ولم يبدُ للأترابِ من ثَدْيِها حَجْمُ (٢)
صغيرين نَرْعَى البَهْمَ بالبَيْتِ أَنْنا إلى الآنَ لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ (٣)

ويقول خالد بن المهاجر :

أمْسَتْ منازلُكُمْ بمكةَ منكمُ (٤) قَفْراً وأَصْبَحَتِ المعالمُ خاليَهْ
لو كنتُ أملكُ رجْعَكم لرجعتكمْ قد كنتُمُ زَيْنِى بها وجَمالِيَهْ
عُلِّقْتُها غِرًّا غُلاماً ناشئًا غَضَّ الشباب وعُلِّقَتْنى جارِيَهْ
حتى استوينا لم تزل لى خُلَّةٌ أبكى إذا طَعَنَتْ بعينٍ باكيَهْ

وقال نُصَيب :

ولولا أنْ يقالَ صبا نُصَيبٌ لقُلتُ بِنَفْسِىَ النَّشْأُ الصِّغارُ
بِنَفْسِىَ كُلُّ مَهْضُومٍ حَشاها إذ ظُلِمتْ فليس لها انتصار

وقال بشار بن برد فى فتاة يقال لها فاطمة وكان قد كُفَّ وذهب بصره ، فسمعها تُغَنِّى فهويها .

بنتُ عَشْرٍ وثلاثٍ قُسِمَتْ بين غُصْنٍ وكثيبٍ وقَمَرْ

---

(١) الكفل : العجز ، والمعكن : المتثنى لحمه سمناً ، والأخثم : الفرج ، والقعب : القدح الضخم الغليظ ، وغير منور بكسر الواو يريد أنه حاق ولم ينبت بعد .

(٢) يقال غر للذكر والمؤنث بلفظ واحد وقد يقال للمؤنث غرة .

(٣) البهم : صغار الضأن .

(٤) انظر نوادر القالى .

دُرَّةٌ بحريـــةٌ مكنونةٌ مازَها التاجر من بين الدُّرَرْ
عَجِبتْ فطْمةُ من نَعْتى لهـــا
هَلْ يُجيدُ النعتَ مَكْفُوفُ البَصَرْ

أمتَا بَدَّدَ هـــذا العُبِي وَوشاحِي حَلَّهُ حتى انتثرْ
فَدَعِيني معَه يا أمتـــا علّنا فى خَلْوَةٍ نَقْضِى الوَطَرْ
أقبلتْ مُغْضَبَةً تَضْربُها واعتراها كجُنونٍ مُسْتَعِرْ
بأبى والله ما أحْسَنَهُ دَمْعُ عَيْنٍ يَغْسِلُ الكُحْلَ فَطَرْ
أيُّها النُّوام هُبُّوا ويْحَكم واسألونى اليومَ ماطَعْمُ السَّهَرْ

وللأعرابى الذى أوردنا حديثه آنفاً مع خالدبن صفوان أبيات فى ترتيب أسنان النساء هى وإن كانت ضعيفة غير أنها مستملحة ظريفة ؛ ومن ثَمَّ نوردها هنا قال :

مَتَى تَلْقَ بنتَ العَشْرِ قد نَصَّ ثَدْيُها كَأُتْرُجَّةِ الغوّاصِ يَهْتَزُّ جِيدُها
تَجِدْ لَذَّةً منهـــا لِخِفَّةِ رُوحِها وغِرَّتِهـــا والحُسْنُ بَعْدُ يَزِيدُها
وصاحِبَةُ العِشْرِينَ لا شىء مِثْلُها فتلكَ التى تَلْهُو بِهـــا وتُرِيدُها
وبنتُ الثلاثين الشِّفاءُ حَدِيثُها هى العَيْشُ ما رَقَّتْ ولا دَقَّ عودُها
وإن تَلْقَ بنتَ الأربعينَ فَغِبْطَةٌ وخَـــيرُ النِّساءِ وَدُّها وَوَلودُها
وصاحِبَةُ الخمسينَ فيها بَقِيَّةٌ من الباهِ واللَّذّاتِ صُلْبٌ عُمُودُها
وصاحِبَةُ السِّتِّينَ لا خيرَ عندَها وفيهـــا ضياعٌ والحريصُ يُرِيدُها
وصاحبهُ السبعينَ إنْ تُلْفَ مُعْسِرا عليكم فتاكُمْ خِزْيَةٌ يَستَفِيدُها
وذاتُ الثمـــانينَ التى قد تَحَلَّلَتْ مِنَ الكِبَرِ الفانى وقَدَّ وَرِيدُها

وصاحِبَةُ التسعين يُرعَشُ رأسُها وبالليل مِقـــلاقٌ قليل هجودُها

* * *

ومنهم من شبَّبَ بالعجائز ؛ قال أبو الأسود الدُّؤلى :

أبى القلبُ إلاَّ أُمَّ عوفٍ وحُبَّها عجوزاً ومَن يُحبِبْ عَجوزاً يُفَنَّدِ[1]

كَسَحْقِ يَمانٍ قد تقادَم عَهْدُهُ ورُقْعَتُه ما شئْت فى العين واليد[2]

* * *

وأرسلت خرقاء صاحبة ذى الرُّمَّة إلى القُحَيف ليُشَبِّبَ بها ، فقال : لاأُشَبِّبُ بعَجوز ، فبَرَزت له فأخَذت بمجامع قلبه ورأى أحسَنَ النِّساء ، فقال :

لقد أرْسَلَت خَرْقاءُ نَحْوِى رَسولَها لِتَجْعَلنى خَرْقاءَ مِمَّنْ أَضَلَّتِ

وَخَرْقاءُ لا تَزْدادُ إلاَّ مَـــلاحَةً ولو عُمِّرَتْ تَعميرَ نُوحٍ وَحَلَّتِ

وكان بنيامين دزرائيلى رئيس الوزارة الانجليزية صَبّاً مُغرَماً بالمسنَّات من الإنجليزيات ، جاء في مجلة البيان التى كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب ما يأتى — وهو مما نقله إلى العربية المرحوم محمد السباعى :

من مأثور كَلِماتِ بنيامين دزرائيلى قوله «إنى مدين فى كل شىء للمرأة ، وإلى تأثيرها فىّ وسلطانها علىّ يُعْزَى كلُّ ما أوتيت من الفخار والمجد والذكر وكلُّ ما صادفت من النجاح والفوز ، وإذا كنت لا أزال فى هرمى أحمِل قلباً

---

(١) التفنيد : التوبيخ واللوم ، والسحق : الخَلَقُ من الثياب الذى قد انْسَحق وانجرد ، وقوله : ورقعته . . . الخ يقول : هى فى النساء كخَلَق البُرْد اليمان فى الثياب وقَدْ تَقَدُم عَهده ، فاذا مَسَسْتَهُ ونظرت إليه وجدت رقعتَه زائدة على كل رقعة دقَّة ومتانة ، فكذلك منظر أم عوف ومختبرُها ، وقوله ما شئت يريد ما شئته ، وقوله فى العين يريد فى النظر ، وفى أيد يريد عند اللمس .

فتياً . ووجداناً ضَرِماً ذكياً ولا أبرح تحت وقار الشَّيب وجلال الشيخوخة أُقلب لسان شاعر مُتَخيِّل ، وعاشق متغزل . وأقول مع القائل :

يا هنـــد ما شاب فتى وإنمـــا شاب الشَّعَرْ

فذلك أيضاً راجع إلى تأثير المرأة » .

فى هذا الاقرار الصادر من إمام البـــلاغة والسياسة تعليلٌ شاف لما امتازت به شيخوخة الرجل العظيم من حوادث الحب العجيبة ، وروايات الغرام المدهشة الغريبة . كان دزرائيلى فى كل أدوار حياته سريعَ الافتتان بجمال المرأة مُفرَط الوَلوع بمَلاحَتِها فكان لا ينفك من شغف بالنساء ، وحنين اليهن ، وطرب إلى محادثتهن ، ومغازلتهن بل هُيامٍ فى إثرهن ، واقتناص لأوانسهن وشواردهن ، . وكل ذلك كان بعِلمٍ من زوجته التى كانت تطيب نفساً عن ذلك وتتسع به صدراً . وكانت صَنَعَ الله لها ولَهُ أدقَّ قلباً وأكرمَ شيمة من أن تكدر عَلَى زوجها العبقرىّ صفوهَ فى أمر ليس فيه عليها كبير شقوةٍ ولا بلاء . ولاجرم فلقد كانت تنطوى عَلَى شىء من البطولة ، فكانت لغرائب خصائص الأبطال أفهم من طبقة العاديات من النساء . وَلشواذِ نزعات العظماء أفطنَ وَأخبر . وهى بما أوتِيَتْ من طبيعة البطولة مليئةٌ أن تُجلَّ النابغة العبقرىّ — زوجها — وتقدسه واهبة له تلك الهفوات التى هى أبداً من مستلزمات البطولة والعظمة — بل التى هى أس البطولة ومادتها وبها غِذاؤها ونماؤها وعليها مدارها وقِوامها . وكانت زوجةُ دزرائيلى هذه أرملة احد زملائه السياسيين أورثَها مالاً جماً ، وعقاراً كثيراً فاقترن بها دزرائيلى وهو ابن أربعة وثلاثين . وكان يقول لها ممازحاً إنما أغراه بزواجها مالُها وثروتُها .

ولكن الليدى بيكونسفيلد (زوجة دزرائيلى) صرحت مرة فى بعض أحاديثها لاتراب لها « كلا والله ما كان اقتران بنيامين بى لطمع فى ثروتى . وكيف ، ولقد كان يبدى شوقه لى وغرامه فى حياة زوجى الأول » .

ولقد عاش دزرائيلى وزوجته ثلاثة وثلاثين عاماً فى صفاء ورخاء . ولقد كان بلغ من فرط حبها إياه أنهـــا جعلت تدخر قصاصات شعره طول مدة حياتها الزوجية وكانت تقص شعره بيديها كُلَّ أسبوعين أو ثلاث .

والرسالة الآتية وهي ما كتبه دزرائيلى إلى زوجته أثناء تأليفه مأساته المشهورة (الأوريوس) تنم عما كان يجدلها فى أعماق قلبه من شدة الغرام والوجد وها هى : « لقد أدمنت أمس الكتابة أسح بها سحاً ، وأهضب بها هضباً . ولقد والله جعلت أصب فى فصول قصتى الخيالية وجداناتى الشخصية ومشاعرى الذاتية فجاءت وكأنها قطعة من حياتى الماضية . وشعبة من عيشتى الخالية . يوم أطارحك الغرام ، وأحادثك أسباب الهوى . فإذا نظرت فى تلك الصحف وجدتها مرآة ماضيك وصدى ذكرياته ، وإذا تلوتها تلوتها بمُهجَة واقدة وأنفاس صاعدة ، وَبِحشاً خافقة ، ومُقلَة مَقْرُوحَة . وكيف وقد كنت أكتبها وشخصك مرتسم على صفحة جَنانى ، واسمك يرفرف على أسَلَة لسانى . ولا غرو فَمَنْ غَيْرُكُ مُلْهِمى — إذا تناولت اليراعة — ومصدرُ وَحْيِي وشيطانى لم يَكد يمضى على وفاة هذه الزوجة نصفُ عام حتى رأينا صاحب الرياسة وداهية الحُكّام والسياسة ، يحرر الرسائل الغرامية لامرأتين كانتا فى تلك الآونة جدَّتين ، لهما أولاد وأحفاد . وكان فى ذلك الحين قد أرْبَى على الثامنة والستين ، ولكن رسائله كان بها من حرارة الوجد وسعير الجوى ما أدهش

معشوقتها واستثار أقصى عجبهما . وكانتا أختين : اللادى ڤِسْتر فيلد ، والكنتيس سيلينا أوف براد فورد . وكانت الأولى قد أنافت على السبعين ولكن التى شغف بها دزرائيلى وهام ، وراح فيها نَهبَ الوساوس والأوهام هى اللادى براد فورد التى كانت متزوجة وقد ناهزت الخامسة والخمسين . وكان قد بلغ من فرط وجده بها أنه بعث إليهـــا بمائة وألف رسالة ، وكان يبعث إليها فى سحابة نهار بالخمس والست من الرسائل على أيدى رسل مختارة كان يقول عنهم فى كتبه إلى السيدة المذكورة « وأن رسلى إليك لعبيدك ورقُّ يديك لافرق بينهم وبين سيدهم صَبِّك المنيم ، وهم تحت أمرك واقفون ببابك من الشروق إلى الغروب ، ويَدُلُّك على فرط وفدة لوعته فى الغرام . وشدة التهاب غُلَّته فى الهيام الرسالة الآتية وهى ما كتبه السياسى الداهية إلى اللادى براد فورد عقب تقلده منصب رياسة الوزارة للمرة الثانية بثلاثة أسابيع . وكانت السيدة المذكورة قد أزمعت مغادرة لندن مع أختها لمدة لا تتجاوز الأسبوعين فوجد لِوَشْكِ هذا البَيْن من شدة الكرب وفرط الجزع ما أجرى يراعه بالكلمة الآتية :

« أتعلمين يا فتنة العالم وزينة الدنيا أنك ما كانت قط أجملَ ولا أملح منك نساء هذا اليوم ، وأما لو استطعت وساعدنى القدر لجلست إلى يوم القيامة أُلَهِّمُ بعينى بدائع جمالك ، وبأذنى روائع مَقالك . ولكن كان ينغص علىَّ لذتى ، ويكدر صفاء نعمتى علمى إنَّ هذا اللقاء إنما كان لوَداع . وإن الفراق كان رهيناً بذلك الاجتماع .

حجبوها حتى بَدَتْ لِفِراقٍ كان داء لعاشق ودواء

أضحك البينُ يوم ذاك وأبكى كلَّ ذى لوعـــة وسَرَّ وساء
فجعلنا السلام فيـــه وَداعا وجعلنا الفراق فيـــه لقاء

والظاهر أن اللادى برادفورد احتجت على طغيان صبابته ، وأنكرتْ منه غُلَواء هُيامه وسَوْرَته ، حتى كتب إليها ديزرائيلى رداً على إنكارها واحتجاجها الرسالة الآتية : « ما أحسب أنى كنت فى مكاشفتى إياك الهوى ومصارحتى ماشفنى من الجوى بمتجاوزٍ قدرى . ومُتعدٍّ حدى وطورى : وكيف ولم أبغ منك قط أكثر من مجالسةِ الأصحاب . ومؤانسة الأحباب ولاحاولت أزْيَدَ من التماس القائل :

أتأذنون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

فإذا بلغتُ هذا كان غاية ما أريد . فلم أطمح إلى ما دونه ولم أقل هل من مزيد . فجنبينى يا قرة العين وعبثك بالحرمان . ولا تُرَوِّعينى بنذير الصد والهجران ، فما أرانى أهلا لذاك ، ولا مستوجباً مساءتك وأذاكِ . وعلى كل فلن يكون منى بعد اليوم أدنى ما يسْخِطُكِ ويسوءك » .

ثم مُشِى بالصلح بينهما وجاءته رسالة من معشوقته سيلنا لادى برادفورد تنبئ عن العفو والرضا فكتب إليها :

قرأت كتابك فأبرأ علتى ، وشفَى غُلَّتى :

وكان ألذ فى نفسى وأندَى على كبدى من الزَّهْرِ الجنىّ
وضُمِّنَ صدرُه ما لم تُضَمَّنْ صدورُ الغانيات من الحُلِىِّ

وأقاما حِقْبَةَ من الدهر بين صلح وخصام ، ونِفار ووئام ، وإن شأنهما فى الحب لعلى حد قول القائل :

لا خير فى الحب وَدّاً لا تحركه عواملُ اليأس أو يرتاحه الطمع

وقول الآخر :

إذا لم يكن فى الحب عَتْبٌ ولا رضا فأين حلاواتُ الرسائل والكتب

ومن أعجب العجائب أنه بينما كانت أعباء السياسة تتراكم على كاهل السياسى الأريب ، وجو الحوادث مظلم مكفهر كنت تراه فى هذا المأزق الضنك واليوم العصيب يوالى الرسائل إلى اللادى برادفورد كأمثال الرسالة الآتية «لا أكذبك يا مولاتى إنه لا حياة لى إلا برؤيتكِ ولا بقاء لى إلا بسماع صوتك ونغمتك ، أو تلاوة كتابك ورسالتك» .

« أحمد الله الذى مد فى أجلى حتى تَعِمْت بفجر الحب وضحاه ، وبِبُكْرَتِه وعشاه . وبِسَحَره وأصيله . ومغداه ومَقِيله» .

«ألا إن رؤيتى إياك فى المجلس الحافل لَلَذَّةٌ متميزةٌ عن سواها ، على أن حلوتى بك متعة مغايرة لتلك لَسْتُ على ممر الدهور أنساها . ولِكِلْتَيْهِما بعدُ مَذْهَبُهُما الخاص من الرَّوْح ومجراها كنور القمر وكالشمس فى ضحاها» .

وأعجب ما فى غراميات ديزرائيلى أنه لما يئس من رضى اللادى برادفورد بالاقتران به خطب أختها الكبرى اللادى شيسترفيلد محتجاً لذلك بقوله : سأعتنق إحداهما كزوجة لى وأعتنق الأخرى كشقيقة .

ولكن اللادى شيسترفيلد أبت ذلك لاعتقادها أنها لم تكن تشغل من قلبه المكان الأعلى .

أما رسائل السيدتين إلى ديزرائيلى وحقيقة شعورهما نحوه فهذا ما لم يتيسر تحقيقه وتثبيته . ولن يتيسر . وذلك لأن رسائلهما إليه أحرقت عقب وفاته

طبقاً لمُرادِهما ورغبتهما الصريحة . على أنا نعلم أن اللادى برادفورد كانت لا تغالى بشىء مغالاتها بفوتوغراف صغير لديزرائيلى كانت أهدته إليها الملكة فيكتوريا التى كانت يسميها ديزرائيلى «الحورية» .

ولم يَفْتُرْ شَغَفُ الرجل بالنساء حتى فى أخريات عمره بل بقى إلى ذلك الحين طلابا للغوانى حريصاً على مجالسهن حتى آل الأمر أخيراً إلى أنه ألف نادياً من صُوَيْحِباتِه كان له فيه اللذة الكبرى والنعمة العظمى . . .

عود على عبقرياتهم فى المَشيب :

ومن بارع ما قيل فى ذم الشيب وَبُكِى به الشَّباب قول محمد بن حازم الباهِلِىّ :

لا تُكْذِبَنَّ فما الدُّنيا بأَجْمَعِها ... مِن الشَّبابِ بِيَوْمٍ واحِدٍ بَدَلُ
شَرْخَ الشَّبابِ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِى أَسَفًا ... ما جَدَّ ذِكْرُكَ إلاَّ جَدَّ لِى ثُكَلُ[1]
كَفاكَ بالشَّيْبِ ذَنْباً عند غانِيَةٍ ... وبالشَّبابِ شَفِيعاً أَيُّها الرَّجُلُ

وقول مَنصور النَّمرى فى قصيدة يمدح بها هارون الرشيد :

ما تَنْقَضِى حَسْرَةٌ مِنِّى ولا جَزَعُ ... إذا ذَكَرْتُ شَبابًا ليس يُرْتَجَعُ
ما واجَهَ الشَّيْبَ مِن عَيْنٍ وإنْ وَمِقَتْ ... إلاَّ لَها نبْوَةٌ عَنْهُ ومُرْتَدَعُ[2]
ما كُنتُ أُوفِى شَبابِى كُنْهَ غِرَّتِه ... حَتَّى انْقَضَى فإذا الدُّنيا لَهُ تَبَعُ[3]

---

(١) ثكل : فقد .

(٢) ومقت : أحبَّتْ والمِقة : المحبة ، ومرتدع : ارتداع وكفّ .

(٣) كنه الشىء : قدره ووجهه ونهايته وغايته تقول : فعل فلان فوق كنه استحقاقه أى فوق قدره ، وقال الشاعر :

وإن كلامَ المرء فى غير كُنْهِه ... لكالنَّبْل تهوِى ليس فيها نصالها

إنْ كُنتِ لَمْ تَطْعَمِي ثُكْلَ الشَّبَابِ وَلَمْ
تَشْجَىْ بِغُصَّتِهِ فالعُـــذْرُ لا يَقَعُ
أَبْكِي شَبَابًا سُلِبْنَاهُ وكانَ وَلاَ تُوفِي بِقِيمَتِهِ الدُّنيـــا وما تَسَعُ

قيل : إنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَ قولَه فإذا الدُّنيا له تَبَعٌ قال : نَعَمْ ، ما خَيْرُ دُنيا لا يُخْطَرُ فيها بِبُرْدِ الشَّباب !

وقال الغَزِّى :

لا تَطْمَعَنْ بِوَصْلِ خَوْدٍ أَبْصَرَتْ سيفَ المَشيبِ على الشبابِ مُجَرَّدا
عُذرُ الكواعِبِ أَنَّهُنَّ كواكِبٌ لاَ يَجْتَمِعْنَ مَعَ الصباحِ إذا بَدا

وقال :

إذا اشتعلت قرون الرأس شيباً خبَتْ نارُ الخـــواطِرِ والطباع
فـــلا تَقُلِ البياض له شعاع بَياضُ العين يذهب بالشعاع

فى غير كنهه : رُئِى فى غير وقته ومَوضعه ، وفى الحديث : لا تَسْأَلِ المرأةُ طلاقها فى غير كُنْهه أى فى غير أن تبلغ من الأَذى إلى الغاية التى تُعْذَرُ فى سؤالِ الطَّلاقِ مَعَها ، قال الزبيدى : ومما يُسْتَدْرَكُ : كُنْهُ الشىء : حقيقَته — أى كما يقول المنطقيون — علماء المنطق — قال : نقله الزمخشرى ، ونسبه ابن دريد إلى العامة ، وأقره الجماهير واستعملوه فيها — أى فى الحقيقة — حتى صار أشهر من هذه المعانى — أى التى أسلفنا — والغِرَّة بكسر الغين : الغفلة ومنه قولهم : كان ذلك فى غِرارَتى وحَداثتى أى فى غِرَّتى وأيام غَفلتى ومنه الجارية الغِرَّةَ أى الشابة التى لم تجرب الأمور ولا تعلم ما يعلم النساء من الخُبْثِ والخِبِّ — المكر — ومنه يقال للرجل إذا شاخ : أدبر غريرُه وأقبل هريره ، أى ذهبت غفلته وطيبته وجاء سوء خلقه .

وقال أبو الغُصْنِ الأسَدِيّ :

أتأمُلُ رَجْعَـــةَ الدُّنيا سَفاهاً ... وقد صارَ الشَّبابُ إلى ذَهابِ
فلَيْتَ البا كِياتِ بِـكُلِّ أرْضٍ ... جُمِعْنَ لَنا فنُحْنَ عَلَى الشبابِ

وقال صُرَدُرٌ :

لَمْ أبْكِ أنْ رَحَلَ الشباب وإنَّما ... أبْكِي لِأنْ يتقارَبَ الميعادُ
شَعَرُ الفَتى أوراقهُ فإذا ذَوَى ... جَفَّتْ على آثارِه الأعـــوادُ

ولله عَلِيُّ بنُ العَبَّاسِ الرُّومي إذ يقول :

لا تَلْحَ مَنْ يَبْكِي شَبِيبَتَهُ ... إلا إذا لم يَبْكِها بِدَمِ (١)
عَيْبُ الشَّبِيبَةِ غَوْلُ سَكْرَتِها ... مِقدارَ ما فيهـــا مِنَ النِّعَمِ (٢)
لَسْنا نَراها حَقَّ رُؤيَتِهـــا ... إلاَّ زَمانَ الشَّيْبِ والهَرَمِ
كالشَّمْسِ لا تَبدو فَضِيلَتُها ... حَتَّى تُغَشَّى الأرْضُ بالظلَمِ
ولَرُبَّ شَيءٍ لا يُبَيِّنُـــهُ ... وُجدانُه إلاَّ مَعَ العَدَمِ

---

(١) لا تَلْحَ : لا تَلُمْ .

(٢) مقدارَ مفعول غول ، وغول بمعنى : اغتيال يقول : إن عيب الشباب أنّ سكرته تغتال وتذهب بمقدار ما فيه من نِعم ؛ وهم يشبهون الإنسان فى شبيبته بالسكران لهواً وغفلة وفى ذلك يقول المتنبي :

إذا كان الشَّبابُ السُّكْرَ والشَّيْـ ... ـبُ هَمًّا فالحيـاةُ هى الحِمَامُ

وغول سكرتها من قوله تعالى فى وصف خمر الجنة (لا فيها غَول ولاهُمْ عنها يُنْزَفون الغول : أن تغتال عقولهم وتذهب بها .

وقال أبو تمام :

غَدَا الشَّيْبُ مُخْطَطًا بِفَوْدَىَّ خُطَّةً ... سَبِيلُ الرَّدَى مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ مَهْيَعُ (١)

هُوَ الزَّوْرُ يُجْفَى وَالْمُعَاشِرُ يَجْتَوَى ... وَذُو الإِلْفِ يُقْلَى وَالْجَدِيدُ يُرَقَّعُ (٢)

لَهُ مَنْظَرٌ فِى الْعَيْنِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ ... وَلَكِنَّهُ فِى الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ

وَنَحْنُ نُرَجِّيهِ عَلَى الْكُرْهِ وَالرِّضَا ... وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهْوَ أَجْدَعُ (٣)

وقال أبو تمام أيضاً :

شُعْلَةٌ فِى الْمَفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْنِى ... وَفِى صَمِيمِ الْفُؤَادِ ثُكْلاً صَمِيمَا

غُرَّةٌ بُهْمَةٌ أَلاَ إِنَّمَا كُنْـ ... ـتُ أُغَرَّ أَيَّامَ كُنْتُ بُهْمَا (٤)

دِقَّةٌ فِى الْحَيَاةِ تُدْعَى جَلاَلاً ... مِثْلُ مَا سُمِّىَ اللَّدِيغُ سَلِيمَا

---

(١) الشيب يروى : الهَمّ ، والفَودان : جانبا الرأس ، ومهيع : بيّن واضح .

(٢) الزّور : الزائر ، ويجتوى : يكره ، ويقلى : يبغض ، وقوله : والجديد يرقع يعنى : الخضاب ، يقول : إن الشيب هو الزائر المَجْفُوّ والعشير المكروه والأليف البغيض والجديد الذى يحتاج إلى الترقيع ، وما ترقيعه إلا خضابه لأنه يخضب مرة فيَنْصِل وهلمّ .

(٣) نُرَجِّيه من الرجاء ويروى : نزجيه بالزاى والتزجية : المدافعة والسوق برفق يقول : نصحب الشيب وندافعه ونحمله ونسوقه كارهين وراضين ، وقوله : وأنف الفتى الخ يشير إلى المثل (أنفك منك وإن كان أجدع — أى مقطوع — يقول : لا سبيل إلى الخلاص مما لزم .

(٤) الغرة فى الأصل : البياض فى جبهة الفَرَس فوق قدر الدرهم ومنه فرس أغر ، والبهمة كالظُّلمة وزنا ومعنى ، وغرة بهمة على معنى التضاد أى أن اسمها غرة لأنها بيضاء وهى فى الواقع وعلى الحقيقة ظلمة فى قبحها كما قال آنفاً ولكنه فى القلب أسود أسفع ثم قال وهو إنما كان أغر فى الوقت الذى كان شعره أسود بهيما .

حَلَمتَنِي زَعَمْتُمو وأرانِي قَبلَ هذا التحليم كنت حَليما

ومثل هذا قول المتنبي :

ليت الحوادثَ باعَتْني الذى أخذَتْ مِنِّي بِحِلْمى الذى أعْطَتْ وتجريبي
فمـــا الحداثَةُ فى حِلْمٍ بمانِعَةٍ قد يُوجَدُ الحِلْمُ فى الشُّبَّانِ والشيبِ

وذلك أنَّ منهم مَن مَدَح الشيب بأنَّه يكسب صاحبَه العقل والحنكَة والوقار فَرَدَّ عليهم أبو تمام والمتنبي بأن الشباب لا ينافى العقل وأن الشاب قد يكون عاقلا أريبا . هذا وأنت تعلم أن الشعراء يهيمون فى كل واد وأنهم ينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس وعلى العكس ، فإذا كان أبو تمام قد رَدَّ على من مدح الشيب بأنه يورث الحـــلم والوقار فإنه وافقهم على ذلك فى بعض شعره فقال :

وَلاَ يَرُوعَنْكِ إيماضُ القَتِيرِ بِهِ فإنَّ ذاكِ ابتسامُ الرأى والأَدَبِ[1]

ويقول دِعْبل :

أهلا وسهـــلا بالمَشيب فإنَّه سِمَةُ العفيفِ وحِلْيَةُ المُتَحَرِّج
ضَيْفٌ أَلَمَّ بمفرقى فَقَرَيتُهُ رَفْضَ الغَوايَةِ واقتصادَ المنهج
وكأنَّ شَيْبِي نَظْمُ دُرٍّ زاهِرٍ فى تاجِ ذِى مُلْكٍ أغَرَّ مُتَوَّج

ولهم فى هذا المعنى كثير ... ونعود إلى عبقرياتهم فى البكاء على الشباب

---

(١) القتير : المشيب وفى الحديث (أن رَجلاسأله (ص) عن امرأة أراد نكاحها — زواجها ، قال : وبقدر أى النساء هى ؟ قال : قد رأت القتير ، قال : دعها) .

وأصل القَتير رءوس المسامير فى الدرع تلوح فيها ، شبَّه بها الشيب إذا نقب فى سواد الشعر .

وذم المشيب فمن أروع ما قيل فى وصف الشيب من أول ما يبتدى إلى أن ينتهى قول أعرابى :

ذهب الشباب فلا شباب جمانا ... وكأنّ ما قد كان لم يك كانا[1]

وطويت كفّى يا جمان على العصا ... وكفى جمان بطيها حدثانا[2]

يا من لشيخ قد تخدد لحمه ... أفنى ثلاث عمائم ألوانا[3]

سوداء حالكة وسحق مفوف ... وأجدّ لونا بعد ذاك هجانا[4]

صحب الزمان على اختلاف فنونه ... فأراه منه كراهة وهوانا

قصر الليالى خطوه فتدانى ... وحنون قائم صلبه فتحانى[5]

---

(١) جمانا يريد : يا جمانة فرخم .

(٢) حدثان الدهر : نوبه ومصائبه يقول : كفّى بطىّ كفّى على العصا مصيبة ومرزئة يا جمانة .

(٣) تخدد لحمه : اضطرب لحمه من الهزال وتقبض جلده ، والوانا صفة لثلاث على المعنى كأنه قال : مختلفات وقد بين العمائم الثلاث فى البيت الذى يليه .

(٤) يقول : إن العمائم الثلاث التى أفناها هى شعره الأسود الصرف إذ كان شاباً وهو قوله سوداء حالكة . ثم شعره الأسود بعد أن خالطه الشيب وهو قوله وسحق مفوف والتفويف التنقيش مأخوذ من الفوف وهو النكتة البيضاء التى تحدث فى أظفار الاحداث والسحق : الخلق البالى ، أما العمامة الثالثة فذلك حين يعم رأسه الشيب وهو قوله : وأجدّ لونا بعد ذاك هجانا ، وأجد أى استجد ، والهجان : الأبيض .

(٥) قوله الليالى فاعل قصر وخطوه مفعول وقوله وحنون قائم صلبه فتحانى ، يقول فى مثله أبو الطمحان القينى وأجاد كل الاجادة :

حنّتنى حانيات الدهر حتى ... كأنّى خاتل أدنو لصيد

قريب الخطو يحسب من رآنى ... — ولست مقيّدا — أنّى بقيد —

والمَوْتُ يأتِي بعـــد ذلكَ كُلِّهِ وكأنَّما يُعْنَى بذاكَ سِوانا[1]

ومِن بديع التشبيه فى هذا الباب قول الفرزدق :

والشَّيبُ يَنْهَضُ فى السوادِ كأنَّهُ لَيلٌ يَصِيحُ بِجانِبَيْهِ نَهـــارُ

وقبله :

قالت : وكيفَ يميلُ مِثْلُكَ للصِّبا وعَلَيْكَ من سِمَةِ الحليمِ وَقارُ

استعارَ الليلَ للشباب والنهار للمشيب وأَسْنَدَ الصياحَ إلى النهار كما أنه تخيل أن النهار مُقبل إقبال الهازم وأن الليل مُدْبر إدبارَ المهزوم ومن العادة أن يَصيحَ الهازِم على المهزوم .

وقول بعضهم : كالصبح أحدث للظلام أفُولا

وقول الآخر : ليل تَلفَّع مُدْبِرًا بنهار

وقول البحترى :

مَشيبٌ كَنَتْ السِّرَّ أَعْيَى بِحَمْلِهِ مُحَدِّثُهُ أوضاق صـــدرُ مُذيعِهِ

تَلاحَقَ حتى كاد يأتِي بَطيئُه لِحَثِّ الليالى قبل آتِى سَرِيعِهِ

وَمن بديع التشبيه أيضاً قولُ شاعر يُسَمَّى داود بن جَهْوَةَ :

وأنكَرْتُ شَمْسَ الشَّيْبِ فى رأسِ لِمَّتى لَعَمْرِى لَلَيْلى كان أَحْسَنَ مِن شَمْسِي

كأنَّ الصِّبا والشَّيبُ يَطْمِسُ نُورَهُ عَروسُ أُناسٍ ماتَ فى لَيلَةِ العُرْسِ

---

(١) قوله : وكأنما يُعْنى بذاك سوانا من أبلغ ما يكون من الموعظة يقول : كأنما المقصود بذلك غيرنا لا نحن و إلا لاعْتبرنا واتّعظنا .

وقد أخذ ابن الرومي معنى البيت الأول من هذين البيتين فقال :

أرى الدهر أجرى ليله ونهاره ... بعدل فلا هذا ولا ذاك سرمد
وجار على ليل الشباب فضامه ... نهار مشيب سرمد ليس ينفد

ويقول ابن الرومي :

أبين ضلوعي جمرة تتوقد ... على ما مضى أم حسرة تتجدد
خليلي ما بعد الشباب رزية ... يجم لها ماء الشؤون ويعتد
فلا تلعبا إن فاض دمع لفقده ... فقل له بحر من الدمع يشمد
ولا تعجبا للجلد يبكي ، فربما ... تفطر عن عين من الماء جلمد
شباب الفتى مجلوده وعزاؤه ... فكيف ؟ وأنى ؟ بعده يتجلد
وفقد الشباب الموت يوجد طعمه ... صراحاً ، وطعم الموت بالموت يفقد
رزئت شبابي عودة بعد بدأة ... وهن الرزايا باديات وعود
سلبتُ سوادَ العارضين وقبله ... بياضهما المحمود إذ أنا أمرد
وبُدلت من ذاك البياض وحسنه ... بياضاً ذميماً لا يزال يسود
لشتان ما بين البياضين : معجب ... أنيق ومشنوء إلى العين أنكد
تضاحك في أفنان رأسي ولحيتي ... وأقبح ضحكاً كين شيب وأدرد
وكنت جلاء للعيون من القذى ... فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد

هي الأعين النجل التي كنت تشتكي
مواقعها في القلب ، والرأس أسود

فمالك تأسى الآن لما رأيتها ... وقد جعلت مرمى سواك تعمد
تشكى إذا ما أقصدتك سهامها ... وتأسى إذا نكبن عنك وتكمد
كذلك تلك النبل من وقعت به ... ومن صرفت عنه من القوم مقصد

إذا عدلت عنا وجدنا عدولها ... كموقعها فى القلب ، بل هو أجهد
تُنَكِّبُ عنا مرةً ، فكأنما ... مُنَكِّبُها عنا الينـــا مسدد
كفى حزناً ان الشباب مُعجَّلٌ ... قصير الليـــالى والمشيب مخلد
إذا حلَّ جارَى المرء شأوَ حياته ... إلى أن يضم المرء والشيب ملحد
أرى الدهر أجرى ليله ونهاره ... بعدل فلا هذا ولا ذاك سرمد
وجار على ليل الشباب مَعاشر ... فقالوا نهار الشيب أهدى وأرشد
وكان نهار المرء أهدى لسعيه ... ولـكن ظل الليل أندى وأبرد
أأيام لهوى هل مواضيك عُوَّد ؟ ... وهل لشباب ضل بالأمس منشد ؟
أقول وقد شابت شواتى وقُوِّسَتْ ... قناتى ، واضحت كِدْنَتِى تتخدد[1]
ودب كلال فى عظامى أدَبَّنى ... جنيب العصا أنآد أو أتأيد
وبورك طرفى فالشخوص حِياله ... قرائن من أدنى مدًى وهى فُرَّد
ولذت أحاديثى الرجالَ ، وأعرضت ... سليمى وريا عن حديثى ومهدد
لما تؤذن الدنيا به من صدوفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فـــا يبكيه منها وانها ... لأفسح مما كان فيـــه وأرغد
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد[2]
وللنفس أحوال تظل كأنهـــا ... تشاهد فيها كل غيب سيشهد

* * *

لعبت بأولى الدهر فاغتال شرَّتى ... بأخرى حقود ، والجرائم تحقد
فصبراً على ما اشتد منه ، فإنما ... يقوم لمـــا يشتد من يتشدد

---

(١) الكدنة بضم الكاف وكسرها غلظ الجسم وسمنه .
(٢) استهل : رفع صوته بالبكاء صارخاً .

يذيق الفتى طورى رخاء وشدة حوادثه ، والحولُ بالحول يُطرد
ومالى عزاء عن شبابى عامتُه سوى أننى من بعده لا أُخلَّدُ
وان مشيبى «واعدٌ» بلحاقه وان قال قوم إنه «يتوعد»

وهذه أبيات ابن الرومى من قصيدة بارعة كثيرة النوادر قليلة الحشو على طولها ، إذ يبلغ عدد أبياتها أربعمائة بيت يمدح صاعد بن مخلد ويذكر الموفق وصاحب الزنج ، ومنها قوله فى المديح :

تَرَاهُ عن الحَرْبِ العَوانِ بِمَعْزِلٍ وآراؤُه فيها وإن غابَ شُهَّدُ
كما احتجبَ المقدارُ والحُكْمُ حُكْمُهُ
عَلَى الناسِ طُرًّا ليس عنه مُعَرَّدُ (١)

* * *

ولْنَعْطِفْ على قولهم فى التفجع عَلَى أيام الشباب وذَمّ الشيب ، فمن ذلك قول المَعَرِّى :

إذا الفَتَى ذَمَّ عَيشًا فى شَبِيبَتِهِ فما يقول إذا عَصْرُ الشباب مَضَى (٢)
وَقد تَعَوَّضتُ مِن كُلٍّ بِمُشْبِهِهِ فما وَجَدْتُ لِأيام الصِّبا عِوَضَا (٣)

---

(١) المقدار : القدر ، وليس عنه مُعَرَّد : ليس عنه فرار ومهرب ، فالتعريد : الفرار

(٢) أى إذا لم يحمد الإنسان عيشه فى زمن الشباب فكيف يحمده إذا ولّى الشباب وحلّ به المشيب وهو تخاذل القوى وتحوُّل الأحوال !

(٣) يقول : استبدلت من كل شىء فقدته بدلا يغنى غناءه ، وإذا فقدت أيام الصبا لم أجد لها بدلا أى لا يقوم مقام الشباب حال من الأحوال .

وفى هذه القصيدة يقول فى غير هذا الباب :

وَقد غَرِضْتُ مِن الدنيا فهل زَمَنى ... مُعْطٍ حياتى لِغِرٍّ بَعدُ ما غَرِضَا[1]

جَرَّبتُ دَهْرِى وأَهْلِيهِ فما تَرَكتْ

لِىَ التجارِبُ فى وُدِّ امرِئٍ غَرَضَا

وطريف كُلَّ الطرافة قول بعضهم :

مَن شاب قد مات وَهْوَ حَىٌّ ... يَمشِى على الأرضِ مَشْىَ هالِكْ

لو كانَ عُمْـــرُ الفَتَى حِساباً ... لكان فى شَيْبِه فذالِكْ[2]

ولِأبى تمام :

لَوْ رأى اللهُ أنَّ فى الشَّيْبِ خيراً ... جاوَرَتْه الأبرارُ فى الخُلْدِ شِيباً

يشير أبو تمّام إلى ماوَرَدَ فى الأثرِ مِن أنَّ الجَنَّةَ لا يدخلها عجوز ، وأن الشيبَ يَستحيلونَ عند دخول الجنة إلى شباب أبناء ثلاثة وثلاثين . وقبلَ هذا البيت :

لَعِبَ الشَّيبُ بالمَفارِقِ بل جَـــدَّ فأبكى تُماضِرًا ولَعوبا[3]

---

(١) الغرض : الضجر والملال وغَرِض من كذا وغرض بالمُقام : ضجر وقلق ، والغر : الذى لم يجرب الأمور ، يقول : تمرست بالدنيا . . حتى ضجرت منهـــا وسئمتُ أحوالها ، فهل يسمح زمنى بأن يعطى حياتى من لم يجرب الدنياولم يتبرم بتقلب أحوالها !

(٢) الفذالك جمع فذلكة أى جملة الحساب التى يقال عندها فذالك كذا قال المتنبى :

نُسِقُوا لنا نَسْقَ الحساب مقدما ... وأتى فذالك إذ أتيت مُؤخرا

(٣) تماضر ولعوب اسما امرأتين وتماضر اسم الخنساء ، والمفارق جمع مفرق كمقعد ومجلس وهو وسط الرأس حيث يفرق الشعر ، يقول : لما بدا الشيب فى مفرق رأس بكت النساء لما فاتهن من الصبوة إليه .

خَضَبَتْ خَدَّهَا إلى لؤلؤ العِقْـــدِ دما أنْ رأت شواتِي خضيبا[1]

كُلُّ داءٍ يُرجَى الدَّواءُ لَهُ إلاَّ الفَظِيعَيْنِ مِيتَةً ومَشِيبا

يا نَسِيبَ الثَّغامِ ذَنْبُكِ أبْقَى حَسَناتِي عند الحِسانِ ذُنوبا[2]

ولَئِنْ عِبْنَ ما رأينَ لقد أنْـــكَرْنَ مُسْتَنْكَرا وَعِبْنَ مَعِيبا

أوْ تَصَدَّعْنَ عَنْ قِلًى لَكَفى بالشَّـــيْبِ بيني وبينَهُنَّ حَسِيبا[3]

---

(١) الشواة : جلدة الرأس وخضيب بمعنى مخضوب أى مصبوغ وقوله : إلى لؤلؤ العقد أى انتهى الدمع إلى صدرها لكثرته وقوله : أن رأت أى لأن رأت .

(٢) الثغام : نبت أبيض شبه به الشيب فى البياض .

(٣) الحسيب : الكافى ، يقول : إذا كان تفرقهن عنى للبغض فإن الشيب كاف فى أن يكون سبباً فى ذلك ، قال الشريف المرتضى فى أماليه : وجدت الآمدى يذكر أن قوماً ادعوا المناقضة على أبى تمام فى هذه الأبيات بقوله : فأبكى تماضرا ولعوبا وقوله : خضبت خدها ... البيتين وقوله : ولئن عبن ... البيت قالوا : كيف يبكيه دماً على شيبه ثم يعبنه ؟ قال الآمدى : وليس هاهنا مناقض لأن الشيب إنما أبكى تماضر ولعوب أسفا على شبابه والحسان اللواتى عبنه غير هاتين المرأتين فيكون من أشفق عليه من الشيب منهن وأسف على شبابه بكى كما قال الأخطل :

لَمَّا رأت بدل الشباب بكت له إن المشيبَ لأرْذَلُ الرُّذّال

ولم تكن هذه حال من عابه قال المرتضى : وليس يحتاج فى العذر لأبى تمام إلى ما تكلفه الآمدى ، بل المناقضة زائلة عنه على كل حال وإن كان من قد بكى شبابه وتلهف عليه من النساء هن اللواتى أنكرن مشيبه وعبنه به ، وما المنكر من ذلك وكيف يتناقض أن يبكى على شبابه ونزول شيبه منهن من رأى الشيب ذنباً وعيباً منكراً وفى هذا غاية المطابقة لأنه لا يبكى الشيب ويجزع من حلوله وفراق الشباب إلا من رآه منكراً ومعيباً .

وقالو أبو تمّام .

راحت غوانِي الحَيِّ عنك غوانيا ... يَلْبَسْنَ نَأْيا تارَةً وصُـدودا
مِنْ كُلِّ سابِغَةِ الشباب إذا بَدَتْ ... تَرَكت عَمِيدَ القريتَين عَميدَا
أَرْبَيْنَ بالمُرْدِ الغَطارِف بُدَّنًا ... غِيـدا أَلِفْنَهُمُ لِدَانًا غِيدَا
أَحْلَى الرِّجال من النساء مَواقعًا ... مَن كانَ أَشْبَهَهُم بِهِنَّ خُـدودا

وعميد الأولى بمعنى رئيس وسيد والثانية بمعنى المعمود المشعوف عشقًا أو الذى بلغ به الحب مبلغًا ، ولا يريد أبو تمام بقوله عميد القريتين رجلا بعينه إنما يشير إلى الآية الكريمة (وقالوا لولا نُزِّل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) والقريتان فى الآية : مكة والطائف وعظيم القريتين عروة بن مسعود الثقفى [1] ، وقد شاع استعمال أبى تمام حتى قالوا فى صدر الإسلام : ليس فلان بعميد القريتين ، يعنون : ليس سيداً عظيماً . وقول أبى تمام أربين بالمرد الغطارف ... البيت فأَرْبَيْنَ من أربّ بالشىء : إذا لزمه وأقام عليه ، يقال : أَرَبّ وأَلَبّ بالمكان : إذا أقام فيه ولزمه ، يريد أبو تمام : إنهن لَزِمْنَ هَوَى المُرْدِ وأقَمْنَ عليه ، ورواه قوم : أَرْبَيْنَ بالمُردِ ، من الرِّبا الذى معناه الزيادة يقول أبو تمام : أربين بالمرد أى ازدَدْنَ علينا بهم وجَعَلْنَ المُردَ زيادة اخترنها علينا ، والغطارف جمع غطريف وهو الشاب الظريف الحسن والأغيد الناعم المُتَثَنِّى من اللين والغيداء : المرأة المتثنِّية من اللين واللدان جمع لدن وهو اللين) .

---

(١) قاله المفسرون : فى قوله تعالى ولولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .

ولِيحيى بن خالد بن بَرمك — وتُروَى لغيره — :

اللَّيلُ شَيَّبَ والنَّهـــارُ كِلاهُما ... رأسِي بِكَثْرةِ ما تَدورُ رَحاهُما
يَتَناهَبانِ نُفُوسَنـــا ودِماءنا ... ولحُومَنا عَمداً ونَحنُ نَراهُما
والشيبُ إحدَى المِيتَتَينِ تقدَّمَت ... أُولاهما وتأخَّـــرتْ أُخراهُما

وقال صُرَّدُرٌّ :

لَمْ أَبْكِ أنْ رَحَلَ الشباب وإنَّما ... أبْكِي لأن يتقارَب الميعاد
شَعَرُ الفَتى أوراقهُ فإذا ذَوَتْ ... جَفَّتْ على آثاره الأعواد

وقال الطُّغرائى :

أمَّا الشَّبيبَةِ والنعيمُ فإنـنى ... لم أدرِ أيُّهمـــا الَّذُ وأنضَرُ
حتى انقضى عَصرُ الشباب فبانَ لى ... أنْ الشبابَ هو النعيم الأكبر
لا تُخْدَعَنْ عنه فبائِـعُ ساعَةٍ ... منـــه بدنياه جميعًا يَخْسِرُ

ولمحمود الوَرَّاق :

أليسَ عجبًا بأنَّ الفَتى ... يُصاب ببَعْضِ الذى فى يَدَيْهِ
فمِن بين باكٍ له مُوجَع ... وبين مُعَزٍّ مُعِذٍّ إليـــه
ويَسْلُبُهُ الشيبُ شرخَ الشباب ... وليس يُعَزِّيه خَلْقٌ عليـــه

ولأبى دُلَفَ :

فى كلِّ يَومٍ أرَى بيضاء قد طَلَعَتْ ... كأنَّما طلعَت فى ناظِرِ البَصَرِ
لَئِنْ قَصَصْتُكِ بالمِقراضِ عن بَصَرِى ... لَمَا قَرَضْتُكِ عن هَمِّى وعن فِكرِى

ولمناسبة قص الشيب نورد هنا قول كشاجم فى قرض طلائع المشيب :

نظَرْت إلَى المِراةِ فَرَوَّعَتْنِى ... طلائع شَيْبَتَينِ ألمَتَابِى[1]

(١) المراة بنقل حركة الهمزة لحذفها .

فأمَّا شَيْبَةٌ فَفَزِعْتُ منهـــا إلى المقراض مِن حُبِّ التصابى
وأمَّا شَيْبَةٌ فعفَوْتُ عنهـــا لِتَشْهَدَ بالبَرَاءةِ مِن خِضابِى
فيالكَ من مَشِيب قَد تَبَدَّى أَقَمْتُ بِهِ الدَّليلَ على شبابى

ومن طريف ما يروى فى هذا البَاب أن الإمامَ أبا حنيفَةَ رضى الله عنه قال للحجّام : التَقِطْ هذه الشعراتِ البيضَ ، فقال الحجام : لا تلتَقِطْها فإنَّها تَـكْثُرُ ، فقال الإمام : إذَنْ فالتقِط السود فلعلها تـكثر . . .

وكان حجام يلتقط البيض مِن لحية رجل ؛ فلما كَثُرَ قال : ما ترى فى الحصاد فقد ذهب وقت الالتقاط . . .

وقال ابن طباطبا :

تأوَّبَنِى هَمٌّ لبيضاء نابتَهْ لَهابِغضَةٌ فى مضمرِالقلب ثابتَهْ
ومن عَجَبٍ أنّى إذا رمت قَصّهـــا
قصَصْتُ سِواها وهى تضحك شامتهْ

وقال أبو دُلَفَ :

اشتعل الشيب فأخفَيْتُه وكَلَّ مِقراضى فأعفيتُه
وكلما عالجت قَصًّا له وقلت فى نفسى أخفيته
طالعنى من طُرَّتى طالع كأنّى بالأمس ربيتـــه
أروم ما ليست له حيلة أعيـــانى الشيب فخليته

وإنَّك لتراهم يُعَلِّلُون الشيب أحياناً بأنه نِتَاجُ الهموم والشدائد ، فيقول بعضهم * إنَّ شيبَ الرأسِ نَوَّارُ الهمومِ * ، ويقول ابن المعتز :

قالت : كبِرْتَ وشِبْتَ قلتُ لَها : هـــذا غُبارُ وقائِعِ الدهرِ

ويقول أبو تمام :

شابَ رأسِي وما رأيت مَشِيبِ ... بَ الرأسِ إلا مِنْ فضل شَيْبِ الفؤاد
وكذاك القلوبُ فى كلِّ بُؤْسٍ ... ونعيم طـــلائعُ الأجْسَادِ
زارنى شخصُهُ بِطلعَـــةِ ضَيْمٍ ... عَمَّرَتْ مجلسى من العُوَّادِ
نال رأسى من ثغرَةِ الهَمِّ داءٌ ... لم ينلْهُ من ثُغْرَةِ المِيـــلادِ
طالَ انكارِىَ البياضَ وإن عُمِّرْ ... تُ شيئاً أنكرْتُ لونَ السَّوَادِ

معنى البيت الأول والثانى : شاب رأسِي لا لِكِبَرِ سِنِّى بل لهموم شَمِلتْ فؤادى ، فكلُّ ألَمٍ يحدثُ بالبدن من حادثٍ ويظهر فاعلم أنه قد بدأ بالقلب أولاً كما أن كلّ ما يقع بالجيشِ قد وقع أولا بطائفهم [1] ، فالقلوب أسبقُ إلى حالَىْ البؤسِ والنعيم فهى تجرى من الأجساد مجرى الطلائع من الأجناد ، وقوله : زارنى شخصُهُ ... البيتَ فى نهاية البلاغة والحُسْنِ وذلك أنه يقول :

إن شخص الشيْب لما زارَهُ كثر المتوجِّعُون له والمتأسفون على شبابه والمتفجعون من مفارقته ، فكأنهم فى مجلس عُوَّادٍ له ، لأن من شأن العائد للمريض أن يتوجع ويتفجع — وكَنَى بقوله : عَمَّرَتْ مَجْلِسِى من العواد عن كثرة من تفجع وتوجع من مشيبه . وقوله : نال رأسى من ثغرة الهم . . . البيتَ فالثُّغرة : الفُرْجة تكون فى الشىء ، ولذلك سمى كل بلد جاور عدوا ثغرا ، كان معناه مكشوف للعدو ، فأبو تمام يقول : وجَدَ الشيب من الهم فرجة دخل على رأسى منها — لأن الهم يُشَيِّبُ لا محالَةَ —

---

(١) الطائف : العَسَس الذى يتجسس للجيش ومثله الطليعة فهو بمعناها .

وقولُه : ما لم ينله من ثُغرة الميلاد أراد بثغرة الميلاد الوقت الذى يهجمُ عليه فيه الشيب من عمره ، لأنه يجد السبيل فى ذلك الوقت إلى الحلول برأسه ، فجعله ثغرة من هذا الوجه ، فأراد : أن الشيب حل برأسه من جهة همومه وأحزانه وبلغ من ذلك ما لم يبلغ السن التى توجب حلولَهُ به ، ومن حيث كِبرِهِ ... وقوله : طار انكارىَ البياضَ [1] ... البيتَ فالاصل فى هذا المعنى قول ثعلبة بن موسى :

قد كنتُ أرتاعُ للبيضاء فى حَلَكٍ ... فصرت أرتاع للسوداء فى يَقَقِ [2]

وَ بعده :

أُفْنَى الشبابَ الذى أفنيْتُ جِدَّتَهُ ... كَرُّ الجَدِيدَيْنِ مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِقِ

---

(١) وقال المرزوقى : يحتمل هذا وجوها أحدها ما قال الأعرابى لما استوصف حاله فقال : كنت أنكر الشعرة البيضاء فصرت الآن أنكر الشعرة السوداء ، والثانى : إن عُمِّرتُ شيئا اسْوَدَّ من جِلْدِى ولونى ما كان مُبْيَضًّا فأنكرتُه ، وهذا كما قال العُرْيان ابن الهيثم لما سأله عبد الملك عن حاله فقال : اِبْيَضَّ منى ما كنت أحب أن يسودّ واسودَّ منى ما كنت أحب أن يبيضَّ ثم قال :

فكنت شبابى أبيضَ اللون زاهراً ... فصرت بُعَيْدَ الشيب أسودَ حالكا

والثالث : إن عُمِّرْتُ شيئا أنست بالبياض وسكنت إليه حتى أكون منكراً للسواد كإنكارى الساعة للبياض .

(٢) للبيضاء . الشعرة البيضاء ، والحلك : شدة السواد ، يريد الشعر الأسود ، واليقق : شدة البياض .

لم يَبْرُ كالِيَ فِي طولِ اختـــلافِهِما شَيْئًا أخافُ عليه لذْعَةَ الحَدَقِ[1]

* * *

مَنْ لَمْ يَشِبْ ليسَ مملاقا حليلتَهُ وصاحبُ الشَّيبِ للنِّسْوانِ ذُو مَلَقِ[2]

قَدْ كُنَّ يَفْرَقْنَ منهُ فى شَبِيبَتِهِ فَصَارَ يَفرَقُ مِمَّنْ كانَ ذا فَرَقِ[3]

إنْ الخِضابَ لَتَدْلِيسٌ يُغَشُّ به كالثَّوبِ يُطْوَى لِتَدْلِيسٍ على حَرَقِ[4]

وقد حسَّنَ هذا المعنى أبو الطيب المتنبي فقال :

راعَتكِ رائعةُ البياضِ بعارِضٍ ولَوَ انَّهـــا الأُولى لراعَ الأسْحَمُ

لو كانَ يمكِنُنِي سَفَرْتُ عن الصِّبا فالشيبُ مِن قبـــلِ الأوانِ تَلَثُّمُ[5]

أما قول ثعلبة بن موسى : إن الخضاب لتدليس يُغَشُّ به البيتَ ... فإنه يروى أيضاً على هذا الوجه :

شَيْبٌ تُغَيِّبُهُ عَمَّنْ تغُرُّ به كَبَيْعِكَ الثَّوبَ مَطْوِيًّا على حَرَقِ

---

(١) قوله : لذعة الحدق فهو من قولهم : لذعته النار : إذا لفحته .

(٢) حليلته : من تحاله وتجاوره .

(٣) يفرقن منه : يفزعن ويرتعن من روعة جماله وَرَوْنَقِ شبابه .

(٤) رائعة البياض : الشعرة التى تروع الناظر ، وتروى : راعية البياض ، والراعية من الشعر : أول شعرة تطلع من الشيب قال :

أهـــلا براعية للشيبِ واحدةٍ تَنْعَى الشباب وتنهانا عن الغَزَلِ

(٥) يقول : لو أمكننى أن أظهر صبابى لكشفت عنه فإنى حديث السِّنِّ ولكن الشيب : جارَ على عاجلا فستر شبابى ، فكأنه تلثم بستر ما تحته من السواد ، يعنى أن على شبابه لثاماً من الشيب الذى عجل إليه قبل وقته .

والذى يعنينا هو قولهم فى الخضاب ، فمِنْ ذلك قول ابن الرومى :-

يا بياض المشيب سوَّدْتَ وَجهى عند بيض الوجوهِ سُودِ القرونِ
فلعَمْرِى لأُخْفِيَنَّكَ جُهْدِى عن عِيانِى وعن عِيانِ العيُونِ
ولعَمْرِى لأَمْنعنَّكَ أنْ تضحَكَ فى رأسِ آسفٍ محزُونِ
بخضابٍ فيه ابيضاضٌ لوجهى وسوادٌ لوجْهِكَ الملعُونِ

وقال آخر :

إنَّ شيئًا صلاحُهُ بالخضابِ لعذابٌ مُوَكَّلٌ بعذابِ
ولعَمْرُ الإلهِ لولا هَوَى البيـ ـض وأن تشمئِزَ نفسُ الكِعابِ
لأرَحْتُ الخدَّيْنِ مِنْ وَضَرِ الخِطـ ـرِ وأذْعَنْتُ لانقضاء الشبابِ (١)

وقيل لأعرابى : ألا تَخضِبُ بالوَسْمَةِ ؟ فقال : لِمَ ذاك ؟ فقال : لتصْبُوَ إليك النِّساء ، فقال : أمَّا نِساؤُنا فما يُرِدْنَ مِنَّا بَدِيلاً ، وأمَّا غيْرُهُنَّ فما نَلْتَمِسُ صَبْوَتَهُنَّ ؟ وقال العُتْبى :

وقائلةٍ : تُبيِّضُ والغَوانى نَوافِرُ عن مُعالَجَةِ القَتِيرِ ؟ (٢)
عليكَ الخِطْرَ عَلَّكَ أنْ تَدَانَى إلى بِيضٍ تَرَائِبُهُنَّ حُورِ
فقلتُ لها المشيبُ نَذِيرُ عُمْرِى ولستُ مُسَوِّدًا وَجْهَ النذيرِ

---

(١) الخطر : نبات يجعل ورقه فى الخضاب الأسود يختضب به .

(٢) قوله تُبيِّضُ تريد : أترضى ببياض الشيب ، والقتير فى الأصل رءوس مسامير حلق الدرع يشبه الشيب إذا ظهر فى سواد الشعر ، ومعالجة لك أن تقرأه بفتح اللام فيكون مصدراً أو بكسرها على أنه الجماعة التى تعالج ذلك الشىء .

وقال يزيد بن محمد المهلبي :

صَبَغْتُ الرَّأْسَ خَتْلاً للغَوانِي ... كما غَطَّى على الرِّيْبِ المريبُ[1]

أُسَوِّفُ ثوْبَتِي خَمْسِينَ عاماً ... وَظَنِّي أنَّ مِثْلِي لا يَتُوبُ

يُقَوَّمُ بالثِّقافِ العُودُ لَدْناً ... وَلاَ يَتَقَوَّمُ العُودُ الصليبُ[2]

وقيل لأفلاطون : لم اختضبَ فلان ؟ فقال : كَرِهَ أن يُؤخذ بحنكةِ المشايخ . . .

وقيل لأعرابية : فلان يختضب ، فقالت : لا يُنَالُ الشبابُ بالخضاب كما لا يُنَالُ الغِنَى بالمُنى ، وقال ابن الرومى :

يأيها الرجل المسوِّدُ وجْهَهُ ... كيما يُعَدُّ به من الشبان

أقصِر فلو سوَّدْتَ كل حمامةٍ ... بيضاء ما عُدَّت مَن الغِرْبان

وقد مدح آخرون الخضاب فقد ورَدَ فى الأثر (اختَضِبُوا بالسَّوَادِ فإنَّهُ أَسْكَنُ للزوجة وأَهْيَبُ للعدو) وقال بعضهم * الشيب ضيفُكَ فاقْرِهِ بخضاب *

وقال آخر * إن الخضابَ هو الشبابُ الثانى *

وقال شاعر :

ولَمَّا رأَيْتُ الشَّيْبَ قد شاكَ أهْلَهُ ... تَقَنَّعْتُ وابتعْتُ الشَّبَابَ بِدِرْهَمِ

---

(١) ختلا : مصدر ختل الصائد الصيد : إذا استتر عنه بشىء ثم جعل مثلا لكل شىء ورى بغيره وستر على صاحبه ، والريب : الظنة والتهمة .

(٢) الثقاف خشبة قوية قدر ذراع . فى طرفها خرق يدخل فيه ما يراد تقويمه من رمح أو قوس ، واللدن : اللين من كل شىء .

وقال ابن المعتز وقد ناقض بذلك محمود الوراق حين قال :

يا خاضبَ الشيبِ الذى ... فى كُلِّ ثالثةٍ يعـــودْ
إن النّصُـــولَ إذا بَدَا ... فكأنّهُ شَيْبٌ جَدِيدْ
وَلَهُ بديهةُ روعةٍ ... مكروهُهَا أبَدًا عَتِيدْ
فدَعِ المشيبَ لمـــا أرَا ... دَ فلَنْ يَعُودَ لما تُرِيدْ

فقال : وقالوا : النّصُولُ شَيبٌ جديدٌ ! فقلت * الخضاب شباب جديدٌ ! *

إساءةُ هذا بإحْسَانِ ذَا ... فَإنْ عَادَ هذا فهذا يعودْ

وقال ابن الرومى :

رأيتُ خِضَابَ المَرْءِ عند مَشِيبِهِ ... حِدَادًا على شرخِ الشَبِيبَةِ يُلْبَسُ
وإلا فما يَغْزُو امرُؤٌ بخِضابِهِ ... أيَطْمَعُ أن يَخْفَى شبابٌ مُدَلَّسُ
وكيف بأنْ يَخْفَى المَشِيبُ لخاضبٍ ... وكُلُّ ثلاثٍ صُبْحُه يَتَنَفَّسُ
وهَبْهُ يوارِى شيبه أينَ ماؤُهُ ... وأينَ أديمٌ للشَّبِيبَةِ أمْلَسُ

وقيل لبعض الحكماء : قد شِبت وأنت شاب فلِمَ لا تخضِب ؟ فقال : إنّ الثّكْلَى لا تحتاج إلى الماشطة . . .

* * *

ورأيت أبياتًا ضعيفةً فى الاعتذار عن الخضاب أوردها ياقوت فى معجم الأدباء فى ترجمة الإمام أبى علىّ الفارسى وقال إنه — أى أبا على قال : إنه لا يعرف له شعراً غيرها ، وهى :

خَضَبْتُ الشيبَ لَمّا كان عيباً ... وخَضْبُ الشَيب أولى أن يعابا

ولم أخضِبْ مَخافَةَ هَجْرِ خِلٍّ ولا عَيْباً خَشيتَ ولا عتابا
ولكنَّ المشيبَ بدا ذميما فصَيَّرْتُ الخِضابَ له عقابا

وقيل لأعرابى : ألاَ تُغَيِّرُ شيبَكَ بالخضاب ؟ فقال : بَلَى ، ففَعَلَ ذلك مرَّةً ثُمَّ لم يُعاوِدْ ، فقيل له : لمَ لا تُعاوِدُ الخضاب ؟ فقال : يا هَنَاهُ (١) ، لقد شُدَّ لَحْيَايَ (٢) إخالُنِي ميتا . . .

وقال ابن الرومى :

قل للمُسَوِّدِ حين سَوَّدَ : هكذا غِشُّ الغوانى فى الهوى إيّاكا
كذبَ الغوانِيَ فى سوادِ عِذَارِه فكذبْنَهُ فى وُدِّهِنَّ كَذَاكَا

وقال أيضًا :

إذا دامَ للمرء السَّوادُ ولم تَدُمْ غَضارَتُهُ ظنَّ السَّوَادَ خِضَابَا
فكيف يظُنُّ الشيخ أنْ خِضابَهُ يُظَنُّ سَوَاداً أو يُخَالُ شبابَا

وقال :

لم أخضِبِ الشيب للغوانى أبغِي به عِندَهُنَّ وِدَادَا
لكنْ خضابِي عَلَى شَبابِي لبِستُ من بَعْدِهِ حِدَادَا

وقال آخر :

تستَّرَ بالخضاب وأىُّ شَىْءٍ أدلُّ على المشيبِ مِنَ الخضابِ

---

(١) يا هَنَاة : كلمة لا تستعمل إلا فى النداء والأصل ياهَن فألحقوه ألف إشباع وهاء سكت تضم أو تبدل فى الأصل تاء مضمومة تشبيهاً بحرف الإعراب ومعناه : يا رَجُل
(٢) كأنهم كانوا يضمون الخضاب فى خِرقة يشد بها اللحيان .

وقال المتنبي :

ومِنْ هوى كلِّ مَنْ ليستْ مُموَّهةً تركتُ لوْنَ مشيبي غيرَ مَخْضوبِ

ومِنْ هَوَى الصِّدْقِ في قولي وعادَتِهِ رَغِبْتُ عنْ شَعَرٍ في الوجه مكذُوبِ

ومن قولهم في مـــدح الخضاب ما جاء في الأثر (غيِّرُوا الشيبَ وجنِّبوه السَّواد).

« يقول : لوِّنوا الشيب بنحو حِنَّاء أو كتم ولا تقربوا السَّواد ، وكان ذلك منه (ص) لمَّا جيء بأبي قُحافة والد أبي بكر الصديق يوم الفتح وكأنَّ رأسهُ ولحيتَهُ ثُغامةٌ بيضاء فقال (ص) ذلك ، قال ابنُ حجر : يستحبُّ الخِضاب إلاَّ إنْ كانت عادَةُ أهلُ بَلدِهِ تركَ الصِّبْغ ، فإنَّ مَنْ ينفردُ بهِ عنهم يصيرُ شُهْرَةً — مفضوحاً — فالتركُ أَوْلَى ، وقد رَوَوْا أنَّ المصطفى (ص) لم يخضِبْ : وكذا جمعٌ من الصحابة » .

وسُئِلَ عليٌّ بن أبي طالب عن قول الرسول (غيِّروا الشيْبَ ولا تشبَّهُوا باليهود ، فقال : إنما قال صلى اللهُ عليه وسلم ذلك والدين قُلٌّ ، فأمَّا الآنَ وقد اتسعَ نطاقُهُ وضربَ بجرانِهِ فامرُؤٌ وَما اختار « غيِّروا الشيبَ : أيْ بالخضاب ليرا كمُ الأعداء كُهُولاً أقوِّياءَ ، وقلٌّ : أيْ قليلٌ أهلُه ، والنِّطاق : الحزامُ العريض ، واتِّساعُهُ : كنايةٌ عن الانتشار ، والجِرانُ : مقدَّمُ عُنُقِ البعير يَضْرِبُ بهِ على الأرض إذا استراحَ وتمكَّن : أيْ : بعْدَ قوَّةِ الإسلام إن شاء الإنسان خضبَ وإن شاءَ ترك » .

وقال المتنبي :

وما خضب الناسُ البياضَ لأنَّهُ قبيحٌ ولكنْ أحسنُ الشَّعْرِ فاحِمُهْ

وقال محمودُ الورَّاق :

للضيفِ أن يُقْرَى وَيُعْرَفَ حقُّهُ والشيبُ ضَيْفُكَ فاقْرِهِ بِخِضابِ

وهناك من لا يأبَهُ للشيب ولا يَرْعَوِي عن التصابي ، فيلهو ويلعب

كأنه فى مَيْعة الصبا وجِنّ الشباب ، وأول مَنْ تهاون بالشيب الشاعر جرير إذ يقول :

يقول العاذلاتُ : علاكَ شيبٌ ... أهذا الشيبُ يَمْنَعُنِى مَراحِى

وتَبِعَهُ الناسُ فمن أحسنهم قولا فى ذلك ابن الرومى حيث يقول :

لاَحَ شَيْبِي فَرُحْتُ أَمْرَحُ فيه ... مرَحَ الطِّرف فى العِذار المُحَلَّى (١)

وتولَّى الشبابُ فازْدَدْتُ رُكْضاً ... فى ميـــادين باطِلِي إذ تَوَلَّى

إنَّ من ساءه الزمانُ بشىءٍ ... لأَحَقُّ امرئٍ بأن يتسـلى

وقال إبراهيم بن المهدى :

ألاَ طَرَقَتْنا آخر الليل زينَبُ ... عليك سلامٌ هَلْ لَمَا فات مَطْلَبُ

وقالت : تَجَنَّبْنَا ولا تقربَنَّنـــا ... وكيفَ وأنتم حاجتى أتجنَّبُ

يقولون : هل بعد الثلاثين ملعبٌ ... فقلت وهل قبل الثلاثين مَلْعَبُ

لقد جَلَّ قَدْرُ الشيب إن كان كُلَّما

بَدَتْ شيْبَةٌ يَعْرَى من اللَّهو مركَبُ

وقيل لسلم الخاسر : ما أكبَر ما صنع بك الشيب ! فقال : ما صنعتُ به أكبر ، والله ما هِبْتُه ولا رعيتـــه ولا امتنعت له عن تعاطى مُحَرَّم وارتكاب مأثم . . .

ولأبى بكر الخوارزمى الكاتب الشاعر الأديب الأشهر — وهو معنى غريب — قالوا : أفِقْ مِن سَكْرَةِ اللَّهْوِ والصِّبا ... فقد لاحَ صُبْحٌ فى دُجاكَ عَجِيبُ

---

(١) الطِّرف من الخيل : الكريم العتيق ، والعذار هنا : اللجام ، والمحلى : أى المحلى بالفضة .

فقلت لهم : كُفُّوا اللامَ وأقصِرُوا فإنَّ الكرَى عند الصباح يَطِيبُ

وقال الطُّغْرَائِى :

قَدْ كانَ لى فى شَيْبَتِى فَرَحٌ يَحْدُثُ لى بغتةً بلا سَبَبِ
فمُذْ تولَّى الصِّبَا تبيَّنَ لِى أنَّ الصِّبا كانَ موجبَ الطَّرَبِ
حَظٌّ تولَّى فلستُ أُدْرِكُهُ إلا بعَوْنٍ مِن ابْنَةِ العِنَبِ
فهاتِهَا مِنْ شَيْبَتِى بَدَلاً أَقْضِ بها بَعْضَ ذَلِكَ الأَرَبِ
صفراءُ مثلُ النُّضَارِ ألبسَها مِزَاجُهَا لؤلؤًا من الحَبَبِ
فأسعدُ الناس مَنْ حوتْ يَدُهُ ما شاء مِنْ لؤلؤٍ وَمِنْ ذهَبِ

وقال بهاء الدين زهير وقد تقدَّمَتْ به السِّنُّ :

قالوا كَبِرْتَ عن الصبا وقطعتَ تلك النـاحيَه
فدع الصبـــا لرجاله واخلَع ثياب العاديه
ونَعَمْ كَبِرْتُ وإنما تلك الشمائلُ باقيه
وتفوحُ مِن عِطْفَىَّ أنـــفاسُ الشباب كماهيه
ويميل بى نحو الصِّبا قلبٌ رقيق الحاشيه
فيه من الطرب القديـــم بقيَّةٌ فى الزاويه

ومن أجمل ما وَرَدَ فى التَّرْحيب بالشيب قول أحمد بن زياد الكاتب وقيل ليحيى بن زياد الحارثى :

وَلَمَّا رَأَيتُ الشَّيبَ حَلَّ بياضُهُ بِمَفْرِقِ رأسٍ قُلتُ للشَّيبِ مرحَبَا
وَلو خِلْتُ أنِّى إن كَفَفْتُ تحيَّتِى تنكَّبَ عَنِّى رُمْتَ أن يتنكَّبَا
ولـكن إذا ما حَلَّ كُرْهٌ فسامَحَتْ به النَّفسُ يوماً كان للكُرْهِ أَذْهَبَا

ولمسلم بن الوليد فى نحوه :

الشيبُ كُرْهٌ وكُرْهٌ أن يفارِقَنِى ... أعْجِبْ بِشَىءٍ على البغضاء مورودِ
يَمْضِى الشبابُ وقد يأتى له خَلَفٌ ... والشَّيب يَذْهَبُ مفقودًا بمفقودِ

وقال آخر فى باب من أبواب من لم يحفِلْ بحلول الشيب :

وتنكَّرَتْ شيْبِي فقلت لها ... ليسَ المشيبُ بناقصٍ عمرى
سيـــان شيبى والشباب إذا ... ما كنت من أجَلِى على قدرِ

وقال محمد بن يحيى الصولى — وكان قد انحدر مع المكتفى بالله الخليفة العباسى فى سفينة للصيد ومعهما يحيى بن على المنجم وآخرون ، ثم أجْرَوا ذكر الشيب فنزع المكتفى عمامته فإذا شيبَتان فى مقدم رأسه فقال : لقد غَمَّنى طلوع هاتين الشيبَتين ، فقال له الصُّولى : إنَّما يَعيشُ الناسُ فى الشيب ، فأمَّا السَّواد فلا يَصحَبُ الناس خالِصاً أكثرَ من أربعين سنةً إلى خمسين ، وقد يُعَاشُ فى البياضِ الذى لا سوادَ فيه ثمانون سنة ؛ فأنشده يحيى بن على المنجم فى معنى طول العمر مع الشيب قول امرئ القيس :

أَلاَ إنَّ بَعـدَ العُدْمِ لِلمَرْءِ قُنْوَةً ... وَبَعدَ المشيبِ طولَ عُمْرٍ وَمَلْبَسَا[1]

وأنشَدْتُه أنا أيضاً أبياتاً أنشَدَها إسحاق بن إبراهيم الموصلى لبعض القَيسيين :

الشيبُ إن يَظْهَرْ فإنَّ وَرَاءَهُ ... عُمْرًا يكونُ خِلالَهُ مُتَنَفَّسُ
لم يَنْتَقِصْ مِنِّى المشيبُ فَلامَةً ... ولنحْنُ حين بَدا أَلَبُّ وأكْيَسُ

---

(١) القنوة بكسر القاف وضمهـــا : ما يقتنى ويكتسب ، والملبس : ما يلبس من الثياب .

وقال رُؤْبَة بن العجّاج :

أَيُّهَا الشامتُ المُعَيِّرُ بالشيـــــبِ أَقِلَّنَّ بالشبابِ افتخارا
قد لَبِسْتُ الشبابَ غَضًّا جديدًا فوجَدْتُ الشبابَ ثوبًا مُعارَا

وقال أبو تمّام :

أَبْدَتْ أُمَيَّ أَنْ رأتنى مُخْلِسَ القصَبِ وآل ما كان مِنْ عُجْبٍ إلى عَجَبِ (١)
لا تُنْكِرِى منـــــه تَخْدِيدًا تَخَلَّلَهُ
فالسيف لا يُزْدَرَى إنْ كانَ ذَا شُطُبِ (٢)
ولا يُوَرِّقْكِ إيمـــــاضُ القَتِير به فإنَّ ذاكِ ابتسامُ الرأى والأدَبِ (٣)

عبقرياتهم فى مدح الشيب غير ما أسلفنا :

ولنعطف على عبقرياتهم فى مدح الشيب : قال ابن عَبدِ رَبِّه صاحب العقد :

كأنَّ سَوَادَ لِمَّتِه ظلامٌ يُطِلُّ مِنَ المشيب عليه نُورُ

وقال أبو عبد الله الإسباطى :

لا يَرُعْكِ المشيبُ ، يا ابنَةَ عبدِ اللـــــهِ فالشيب زِينَـــــةٌ ووَقَارُ
إنَّما تَحْسُنُ الرِّياضُ إذا ما ضَحِكَتْ فى ظِلالها الأنوارُ

---

(١) أخلس رأسه فهو مخاس وخليس : إذا كان فيه بياض وسواد ، والقصب جمع قصبة وهى الخصلة المتوية من الشعر .

(٢) التخديد : التشنج والهزال ، وشطب السيف طرائقه التى تلمع من شدة جريان مائه وصفاء فرنده .

(٣) القتير الشيب وقد تقدم هذا البيت فى هذا الباب .

وقال أبو عوانةَ الكاتب :

هَزِئَتْ إذْ رأت مَشيبي ، وهل غَـــيْرُ المَصابيح زينَةٌ للسماء
وتولَّتْ فقلت قولا بإفصا ح لها ، لا بالرَّمْزِ والإيماء
إنَّما الشيبُ في المَفارِقِ كالنَّو رِ بَدَا والسَّوادُ كالظَّلْماء
لا مَحِيصٌ عَن المشيب أو المَوْ تِ فَكُنْ للحَوباء أو للنَّماء
إنَّ عُمْراً عُوِّضْتُ فيه عن المَوْ ت بشيب من أعظَمِ النِّعماء

وتأمَّل حَكيم شيبَه فقال : مَرحباً بِزَهْرَةِ الحكمة ويُمْنِ الهُدَى ومُقَدِّمَة العِفَّةِ ولباس التقوى .

ودَخَل أبو دُلَفَ على المأمون وعنده جاريةٌ له ، وكانَ أبو دُلَفَ قد تَرَكَ الخِضابَ ، فأشار المأمون إلى الجارية فقالت له : شِبتَ يا أبا دُلَفَ ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، فسكت عنهـــا أبو دُلَفَ ، فقال له المأمون : أجِبْهَا ، فقال :

تَهزَّأتْ إذْ رأتْ شيبي فقلت لها : لا تَهْزَئِي مَن يَطُلْ عُمْر به يَشِب
شيبُ الرجال لهم زَينٌ ومَكْرُمَةٌ وشَيبُكُنَّ لَكُنَّ الوَيلُ فاكتَئِبي
فينالَكُنَّ — وإن شَيبٌ بدا — أرَبٌ وليس فيكُنَّ بعد الشيب مِن أرَبِ

وقال البحتري مُعلِّلا ظهور الشيب بِصَدِّ الحبيب وهجره :

عَيَّرَتْنِي المشيب وَهْي بَدَتْهُ في عِذاري بالصَّدِّ والاجتناب
لا تَرَيْهِ عاراً فما هو بالشَّيْـ ـب وَلَكِنَّهُ جَلاء الشباب
وبياضُ البازيِّ أصْدَق حُسْناً إنْ تأمَّلْتِ مِن سَوادِ الغُرَاب

وقال :

عَذَلَتْنَا فى عِشْقِهَا أُمُّ عَمْرٍو ... هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأتْ لِمَّةً ألَمَّ بِهـــا الشَّيْـ ... ـبُ فَرِيعَتِ مِن ظُلْمَةٍ فى شروق
ولعَمْرِى لولا الأقاحِيُّ لابصر ... ت أنيقَ الرِّياضِ غيرَ أنيق
وسوادُ العيون لو لم يُحَجِّرْ ... هُ بياضٌ ما كانَ بالمَوموق[1]
ومزاج الصهباء بالمـــاء أمْلَى ... بِصَبوحٍ مستحسن وَغَبُوق
أى ليل يبهى بغير نجوم ... أو سَحَابٌ تندى بغير بروق !.

وقال أبو هَفان[2] :

تَعجَّبت دُرٌّ من شيبى فقلت لها ... لاتعجَبى فبياض الصُّبْح فى السُّدَفِ[3]
وزادَها عَجَباً أَنْ رُحْتُ فى سَمَلٍ ... وما دَرَت دُرٌّ أنَّ الدُّرَّ فى الصَّدَفِ[4]

وقال مهيار الديلمى :

أَراكِ تَرَيْنِى ناقصاً و نَقِيصَتِى ... لَيـــالٍ وأيامٌ عَلَىَّ تَزِيد
لِكُلِّ جديد باعترافِكِ لَذَّةٌ ... فَمَالَكِ عِفْتِ الشيبَ وهو جَدِيدُ

من أقلع عن التصابى لَدَى ظهـــور الشيب وتَشْنِيعِهم على التصابى بعد المشيب :

---

(١) حجره : دارَ به والموموق : المحبوب .

(٢) هوعبد الله بن أحمد بن حرب المهزَمى العبدى ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلاَّ أنه مقل ، وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

(٣) السُّدف جمع سدفة وهي الظلمة .

(٤) السمل : الثوب الخلَق البالى .

قال مَسْلَمة بن عبد الملك : ما وعَظنى شِعْرٌ ما وعظنى ما قال :

صَبَا ما صَبَا حتى عَلا الشيب رأسه فلما عَلاه قال للباطل أبعد

وقال أحمد بن أبى طاهر :

رَكِبتُ الصِّبا حتَّى إذا ما وَنى الصِّبَا نَزَلْتُ من التقوى بأكرَمِ مَنْزِلِ
ودِينُ الفَتى بين التَّنَسُّكِ والنُّهَى ودُنيا الفَتى بين الصِّبَا والتَّغَزُّلِ

وقال أعرابى : فلانٌ وَضَعَ رداءَ مجُونه لَمَّا بدا الفجر من ليالى قرونه .

وقيل لرجل : ألا تَشرب ؟ فقال : فى شيب الرأس مَطْرَدَةٌ عن الكأس .

ومِن كلامهم : ثلاثةٌ كُلٌّ منها يقتضى تجنب الصِّبا : ظهور الشيب ، والتَحَصُّن بالتَّزَوُّج ، والحَجُّ إلى بيت الله الحرام .

وقال أبو الفرج الببَّغاء :

لا عُذرَ بعد عِذارٍ شابَ أكثرُهُ فالشيب أوعظ إعذار وإنذار

وفى الأثر (إن الله يُبْغِضُ الشيخَ الغِرْبيب) .

« الغربيب : الذى لا يَشيب ، والمراد : مَن يَعملُ عَمل مَن لحيتُه سَوْدَاء ، يعنى عمل الشباب من اللهو واللعب والتصابى والإكباب على الشهوات » .

وقال بعضهم : حانَ حَصادِى ولم يصلح فسادى . . .

وقال شاعر :

أنت فى الأربعين مثلك فى العشـــــرينَ قُل لى مَتى يكونُ الفَلاحُ

وقال الأعور الشَّنِّى — وتروى ليزيدَ بن خَذَّاق — :

إذا ما المَرْء — قصَّرَ ثُمَّ مَرَّت عليه الأربعونَ — من الرِّجال

وَلم يلحق مصالحهم فَدَعْهُ فليس بلاحق أُخرى الليالى

وفى مثل هذا المعنى يقول الأُقَيْشِر — شاعر إسلامى — :

إذا المرءُ وَفَّى الأربعين ولم يَكُنْ له دُونَ ما يأتى حَيـــاءٌ ولا سِتْرُ
فَدَعْهُ ولا تَنْفَسْ عليه الذى ارْتَأَى وإنْ جَرَّ أسبابَ الحياةِ له الدَّهْرُ(١)

ولهم فى هذا المعنى كثير :

وفى قولهم : والقائل هو أبو محمد عبد الله بن أيُّوب التَّيْمِىّ :

إذا كانت الخمسونَ سِنَّك لم يَكُنْ لدائِكَ إلاَّ أن تَموتَ طبيبُ
وإنَّ امرأً قد سارَ خمسين حِجَّةً إلى منهـــل من وِرْدِهِ لقريبُ
إذا ما مَضى القرنُ الذى أنت فيهم وَخُلِّفْتَ في قرن فأنت غَرِيبُ

يقال إن التَّميمىّ أخـذها من كلمة للحجاج كتبها إلى قتيبة بن مسلم ؛ وهى : إنى نظرت فى عمرى فإذا أنا قد بلغت خمسين سنة وأنت نحوى فى السِّنِّ ، وإن امرأً قد سارَ إلى منهل خمسين عاماً لَقَمِنٌ أن يَكونَ دَنا منه .

ونختتم هذا المعنى بأبيات جميلة للشاعر ابن الرِّقاع العاملى — شاعر أموى — :

لَوْلاَ الحَيَاءُ وأنَّ رأسى قد عَسَا فيه المَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ القاسِمِ
فَكأنَّها بين النساء أعارَها عَيْنَيْهِ أحْوَرُ من جآذِرِ جاسِمِ

---

(١) يقال : نَفِسْتُ عليه الشىء أنْفَسُه نفاسة ، ونَفِسْت عليه به : إذا لم تره أهلا له وهذان البيتان من أبيات أوردناها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، ونسبها بعضهم لأيمن بن ضريح بن فاتك الأسدى .

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ فى عَيْنِه سِنَةٌ وليس بنائمِ
يَصْطَادُ يقظانَ الرجال حَدِيثُها وتُطِيرُ بهجتُها بِنَوْمِ الحالِمِ

« عسا فيه المشيب : اشتَدَّ بياضُه ، من عسا النَّباتُ عُسُوًّا ، على فُعول — : اشتد وغلظ ، والجَآذِرُ جمع جُؤْذُرٍ — بفتح الذال وضمهـــا — وهو ولد البقرة الوحشية ، وجاسم : قرية بالشام بينها و بين دمشق ثمانية فراسخ ، وأقصده الناس : أصابه من قولهم : أقصده : إذا رماه بسهم فلم يخطئ مقاتله ، ورنقت فى عينه سِنةٌ : من الترنيق بمعنى المخالطة » .

تفاريق فى الشيب والشباب :

قال المتنبى :

إذا كانَ الشبابُ السُّكْرَ والشَّيـــبُ هَمًّا فالحياةُ هى الحمامُ

« يقول : إذا كانَ الانسان فى شيبته كالسكران لَهْوًا وغفلةً وتصابيا وجُنُونًا مُسْتَعِيرًا وفى المَشيب غارقًا فى بَحْرٍ من الهمّ لِضَعْفِهِ وتَلَفُّتِه لما فات من عمره ولأنه يَجُرُّ وراءه سنين كُثْرًا مُوقرة بالآلام و غَيْرِ الدَّهْرِ فان الحياة هى الموت ، يعنى : أن الحياة فى الدنيا مُنَغَّصَةٌ مُكَدَّرَةٌ » .

وقال المتنبى :

مُشِيبُ الذى يَبْكِى الشبابَ مُشِيبُه فكيف تَوَقِّيه وبانيه هادِمُهْ
وتَكْمِلَةُ العَيْشِ الصِّبَا وعَقِيبُهُ وغائِبُ لَوْنِ العارِضَيْنِ وفَادِمُهْ
وَمَا خَضَّبَ الناسُ البياضَ لأنهُ قَبِيحٌ ولكن أحْسَنُ الشَّعْرِ فاحِمُهْ

« يقول : إنَّ الذى يَجْزَعُ على فقد الشباب ويَبكيه إنما أشابَه من أشَبَّهَ ؛ والشيب حصلَ من لدُن مَن حصل منه الشباب فكيف السبيل إلى التوقى من المشيب والذى بنى الشَّبابَ هو الذى هدّمه ، وهذا المعنى ينظر إلى قول ابن الرومى :

تُضَعْضِعُهُ الأوقات وَهْيَ بَقاؤه وتغتالهُ الأقْوَاتُ وَهيَ لَهُ طُعْم
إذا ما رأيت الشيء يُبْلِيه عُمْرُه ويُفْنِيه أنْ يَبْقى فَفي دائه عُقْم

ثم قال المتنبي في البيت الثاني : وتمام العيش هو الصبا وما يتلوه من بلوغ الأشُدّ حتى يكون يافعاً مترعرعاً إلى أن يختلف إلى عارضَيْه لونا سواد و بياض ، يريد المتنبي الحض على السكون إلى الشيب والرّضا به » .

مُنًى كُنَّ لي أنَّ البَياضَ خِضابُ فيَخْفى بتبْييض القرون شَبابُ
ليَالِيَ عند البيض فَوْدايَ فِتنةٌ وفَخْرٌ وذاكَ الفَخْرُ عِنْدِيَ عابُ
فكيف أذُمُّ اليومَ ما كنت أشْتَهي وأدعو بما أشكوهُ حين أُجابُ
جلاَ اللَّونُ عن لَونِ هَدَى كُلَّ مَسْلَكٍ
كما انجابَ عن ضَوءِ النَّهـــارِ ضَبابُ
وفي الجسم نفسي لا تَشيبُ بشيبِه ولو أنَّ ما في الوَجْهِ منه حرَابُ
لها ظُفُرٌ إنْ كلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّه ونابٌ إذا لم يَبْقَ في الفمِ نابُ
يُغَيِّرُ منِّي الدَّهْرُ ما شاء غَيْرَها وأبْلُغُ أقْصَى العُمْرِ وَهْيَ كَعابُ

قوله : مُنًى كنَّ لي أن البياض خضاب . البيت ، فالقرون : ضفائر الشَّعر يقول : إنَّ مَشيبي هذا وكون البياض خضاباً لي يَخْفَى به سَوادُ شعري مُنى كانت لي قديماً ، يعني أنه كان يَتَمَنَّى الشيب من قديم ليَخْفَى شبابُه بابيضاض شعرِه ، ولأنَّه أوقرُ وأجلّ في العين ، وقوله : ليـــاليَ عند البيض فَوْدَايَ فتنةٌ ، البيت فالبيض : النساء ، والفودان : جانبا الرأس ، والعاب : العيب يقول : إنَّ تَمَنِّي المشيب كان في الليالي التي كان شعر رأسه فيها لَدَى النساء فتنة ، لِحُسْنِ شعره وفتنته ، وكنَّ يفخَرْنَ بوصلي ، غير أنَّ ذلك الفخرَ عيبٌ عندي ، لأني ممن يَعِفُّ عن النساء وَيرغَبُ عن وصالهن ، والشيبُ أوْقرُ والشبيبةُ أنزَقُ ثم قال في البيت الثالث : فكيف أذُمُّ المشيب اليوم وقد كنتُ أتَمَنَّاهُ ! وكيف أدعو لنفسي وأطلبُ لها ما إذا أُجِبْتُ إليه شكوته ! يعني :

لا ينبغى أن أشكوَ الشيب انتهاء وقد تمنَّيتُه ابتداء ، وقد سَمِتَ فى هذا سَمْتَ ابن الرومى فى قوله :

هِىَ الأعْيُنُ النُجْلُ التى كنت تشتكى ... مَوَاقِعَهَـــا فى القلب والرأسُ أسْوَدُ

فمالَكَ تأسَى الآن لَمَّا رأيتَهـا ... وقد جعلتْ مَرْمَى سواكَ تَعَمَّدُ

وقول المتنبى : جلاَ اللونُ عن لونٍ هَدَى كلَّ مَسْلَكٍ . البيت فجلاَ : زال وانكشفَ واللون فاعل ، يقول : إن بياضَ الشيب كان كأنّه كامن فى السواد ، فلما زال السوادُ عنه بدا وانكشف ، فاهتدى صاحبه إلى كل طريق من الرشد والخير ، كالنهار إذا جلا عنه الضباب اهتدى السالكُ فى ضوئه . وقوله : وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه ... الأبيات الثلاثة لمَّا ذكر أنه كان يتمنى الشيب — والشيبُ فيه الضعف والعجز — ذكر أن همته لا تشيب ولا ينال منها الضعف بشيب جسمه ، ولو أن الشعرات البيض فى وجهه كانت جرايا ، ثم قال فى البيت التالى : إنْ كلُّ ظفرى ولم يبق فى نابٌ ، من الكبرَ فمتى لاَ يكلُّ ظفرها ولا يذهب نابها ؛ ثم قال فى البيت الأخير : إنَّ نفسى شابةٌ أبدا لا يُغيِّرها الدهر وإنْ تَغيَّرَ جسمى » .

* * *

ومن قول ابن الرمى — وهو من معانيه التى فتقها — قوله يعيب مَن تَعلَّل بالتأسى بما نال غيره وهو يرثى شبابه ، وقد صدَق وأحسن :

يا شبَابِى وأين منّى شبابى ! ... آذننى حِبالُه بانقِضابِ

لَهْفَ نفسى عَلَى نَعِيمى ولَهْوِى ... تَحْتَ أفنانه اللِّدَانِ الرِّطابِ

ومُعزّ عن الشَّباب مُؤَسٍّ ... بمشيب اللِّدَات والأصحابِ

قلتُ لَمَّا انتحَى يَعُدُّ أُساهُ ... من مُصابٍ شبابُهُ فمُصابِ

لَيس تأسُو كُلومَ غيرى كُلومى ... مابِهِ مابِهِ ومابِىَ مابِى

* * *

وقال العتبي :

مَن عاشَ أخلقتِ الأيامُ جِدَّتَهُ ... وَخانهُ الثِّقَتَانِ السَّمْعُ والبَصَرُ
قالت : عَهِدْتُكَ مجنوناً ، فقلتُ لها ... : إنَّ الشبابَ جنونٌ بُرْؤُهُ الكِبَرُ

وقال النابغة الجعدى :

المرء يأمُل أن يَعِيـــشَ وطولُ عيش قد يُضُرُّه
تَفْنَى بَشاشَتُه ويأتى بعد حُلْوِ العيش مُرُّه
وتسوءه الأيام حتى ما يَرَى شيئا يَسُرُّه

وقال السيد محمد توفيق البكرى :

زَمانٌ إذا ما تَذَكَّرْتُهُ ... تَخَيَّلْتُهُ حُلُماً فى الكَرَى
وعهدُ الشباب كَرُؤْيا إذا ... مَضَتْ أدركَتْهَا نفوس الورى

وقال :

أَشَعْرَةٌ بَيضاء أمْ ... أوَّل خَيطِ الكَفَنِ
أَمْ تِلْكَ سَهْمٌ مُرْسَلٌ ... لا يُتَّقَى بالجُنَنِ
والزَّرعُ إنْ هاجَ فقد ... حانَ الحَصادُ وأَنِى

وَبديع قَوال ابن الرومى :

كَفَى بِسِرَاجِ الشيبِ للرأسِ هاديا ... لِمَنْ قد أَضَلَّتْهُ المَنايا لَيَـــالِيا
أَمِنْ بَعدِ إبداءِ المشيبِ مَقاتِلِى ... لرَامِى المنايا تَحْسَبَنِّى ناجِيا
غَدَا الدَّهرُ يَرْمِينِي فتدْنُو سِهامُهُ ... لِشَخْصِيَ أَخْلِقْ أنْ يُصِبْنَ سوادِيا[1]

---

(١) سَوادِيا : شخصى ، فالسواد : الشخص .

وكانَ كرامِي الليل يرمِي ولا يرَى فلَمَّا أضاءَ الشيبُ شخصِي رَمانِيا

وكان من عادة أهل الأندلس من المسلمين أن يلبَسُوا البياض على المتوفَّى قال ابن بسَّام فى الذَّخيرَة : وفى هذا يقول الحُلْوانِيّ :

لَئِنْ كانَ البياضُ لِباسَ حُزْنٍ بأندَلُسٍ فذاكَ مِن الصَّوابِ
أَلَمْ تَرَنِى لَبِسْتُ بَياضَ شَيْبِي لأنِّي قد حَزِنْتُ عَلَى الشَّبابِ

وقالَ ابن بسَّام :

وقد أخذ هذا المعنى بعضُ أهلِ عَصْرِنا وهو أبو العباس أحمد بنُ قاسم المُحَدِّث بقُرْطُبَةَ فقال :

قالت — وقد نَظَرَتْ فَرَوْعَها شَيبٌ على فَوْدَىَّ مُنْتَشِرُ
ما شأنُ ذاكَ البياضِ ؟ قلت لها : ماتَ الشبابُ فَبُيِّضَ الشَّعَرُ

وقال عَوفُ بن مُحَلِّم الخُزَاعى أو الشيبانى وقد دَخَلَ على الأمير عبد الله ابن طاهر ، فسلَّم عليه عبد الله فلم يَسْمَعْ ، فأُعْلِم بذلك ، فأنشد هذه الأبيات ، وقد زعموا أنه ارتجلها ارتجالا — :

يابْنَ الذى دانَ له المَشْرِقانْ طُرًّا وقد دان له المَغْرِبانْ
إنَّ الثَّمانِينَ وَبُلِّغْتَهـــا قد أَحْوَجَتْ سَمْعِى إلى تُرْجُمانْ
وَبدَّلَتْنِى بالشَّطاطِ انْحِنى
وكنتُ كالصَّعْدَةِ تحتَ السِّنانْ[1]

---

(١) الشطاط : حسن القوام والاعتدال ، والصَّعْدَة : القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف .

وَبَدَّلَتْنِي مِنْ زَمَاعِ الفَتَى ... وَهِمَّتِي هَمَّ الجَبَانِ الهِدَانْ[1]
وقارَبَتْ مِنِّي خُطًا لم تَكُنْ ... مُقارَباتٍ وثَنَتْ مِن عِنانْ
وأنشأتْ بيني وبين الوَرَى ... عَنَانَةً مِن غَيرِ نَسْجِ العَنانْ[2]
وَلَمْ تَدَعْ فِيَّ لِمُسْتَمْتِعٍ ... إلاَّ لِسانِي وبِحَسْبِي لِسانْ
أَدْعُو بِهِ اللهَ وأُثْنِي بِهِ ... عَلَى الأَمِيرِ المُصْعَبِيِّ الهِجَانْ[3]
فَقَرَّبَانِي بِأَبِي أَنْتُمَا ... مِن وَطَنِي قَبلَ اصفِرَارِ البَنانْ[4]
وَقَبْلَ مَنْعَايَ إلى نِسْوَةٍ ... أَوطانُهَا حَرَّانُ والرَّقَّتَانْ[5]

وقال النَّمِرُ بن تَوْلَبٍ — شاعر مخضرم وفد على النبي ﷺ وأسلم — :

تدارَكْ ما قَبْلَ الشباب وبَعْدَهُ ... حوادِثُ أيامٍ تَمُرُّ وأَغْفُلُ

---

(١) الزماع : المضاء فى الأمر والعزم عليه ، والهدان : الأحمق الجافى ، الوخم الثقيل فى الحرب .

(٢) العنان : بفتح العين : السحاب واحدته عنانة ، يشير بهذا إلى ضعف بصره وأنه لا يرى الناس إلا من وَرَاء سحابَة .

(٣) الهجان : الكريم .

(٤) قبل اصفرار البنان : أى قبل الموت .

(٥) هو عوف بن محلم مولى بنى أمية ويقال : مولى بنى شيبان الجزرى الحرّانى يُكنى أبا المنهال ، شاعر مجيد من شعراء الدولة الهاشمية ، أدرك سنا بالجزيرة ثم قدم العراق واتّصل بذى اليمينين طاهر بن الحسين والد عبد الله بن طاهر ، وكان سبب اتصاله به أنه نادى على الجسر ببغداد أيام الفتنة بهذه الأبيات :

عَجِبْتُ لِحَرَّاقَةِ ابنِ الحُسَيْنِ ... كيف تَعُومُ ولا تَغْرَقُ
وَبَحْرَانِ من تَحتِها واحِدٌ ... وآخَرُ مِن فَوقِها مُطْبَقُ
وأعجب مِن ذاك عيدانُها ... وقد مَسَّها كيف لا تُورِقُ

يَوَدُّ الفَتى طُولَ السلامَةِ جاهِداً ... فكيفَ يَرى طُولَ السلامَةِ يَفعَلِ
يَرُدُّ الفَتى بعد اعتدال وصحة ... يَنُوءُ إذا رَامَ القِيامَ ويُحْمَلُ

وقال حُمَيْدُ بنُ ثَوْرٍ الهلالى :

أرَى بَصَرِى قد رابَنى بعد صحة ... وَحَسْبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتَسْلَما
وَلاَ يَلْبَثُ العَصرانِ يومٌ وَلَيلَةٌ ... إذا طَلَبا أن يُدْرِكا ما تَيَمَّما

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيرى :

أَلاَ حَىِّ مِن أَجْلِ الحبيبِ المغانيا ... لَبِسْنَ البِلَى مما لَبِسْنَ اللياليا
إذا تقاضى المرء يومٌ وليلةٌ ... تقاضاهُ شىء لا يَمَلُّ التَّقاضِيا

وقال بعض شعراء الجاهلية :

كانت قناتى لا تَلِينُ لِغامِزٍ ... فألانها الإصباحُ والإمساءُ
ودَعَوْتُ ربِّى فى السلامَةِ جاهداً ... لِيُصَحِّنى فإذا السلامةُ داءُ

وفى الحديث الشريف (كَفَى بالسلامةِ داءً) [1] وقيل لأعرابى : كيف

---

(١) يريد سيدنا رسول الله أنه إذا امتد بالمرء العمر و بلغ من الكبر عتيا كان هذا الكبر المسبب عن السلامة والعافية داء من أخبث الأدواء لما يتبع الكبر من الضعف والتهشيم وما إليهما ؛ وثَمَّةَ معنى آخر لعله يريده صلوات الله عليه وهو أن الحياة الانسانية مبنية على أن بعض الضعف نافع لها فلو سلم الانسان من الأدواء فكفى بسلامته داءً لأن السلامة تفسد فيه بعض الغرائز الكريمة فيبطر و يطغى ، إلى غير ذلك مما يشاهد فى أهل الغرور ، وعبارة المناوى شارح الجامع الصغير : لأن دوام سلامة العبد فى نفسه وأهله من المصائب تورثه البطر والعجب والكبر وتحبب إليه الدنيا لما يألفه من الشهوات ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، والتمتع بالشهوات المباحات يحجب القلوب عن الآخرة وكل ذلك

حالك ؟ فقال : ما حالُ مَنْ يَفْنى ببقائه ويسقم بسلامته ويُؤتى من مأمَنه !

وَحَدَّثَ مجمع بن يعقوب الأنصارى قال : أدركتُ حسّانَ بن الغدير شيخاً كبيراً من أجمل الشيوخ وأحسنهم ، فحدّثنى قال : سارَت علينا سائرةٌ من بنى جُشَم بن بكر ، فرأيتُ فيهم فتاةً ما رأيتُ فى نساء العرب مثلها حُسْناً ، فكنتُ أخطُبُها ، فلم يُقدَّرْ لى تزويجُها ، فضَرَبَ الدهرُ بيننا ، فإنى بعد ذلك بأربعينَ سنةً لَفى بلادى إذْ أهلوها قد سارُوا ، وإذا بها عجوزٌ تَسألُ عنّى ، فلمّا دَفَعتْ إلىّ ورأتْ كِبَرى قالت : أأنتَ ابنُ الغدير ؟ فقلتُ نعمْ ، قالت : لقد أكلَ الدهرُ عليك وشَرِب ! قال : فذلك قولى فيها وقد كَبِرتْ أيضاً وتغيَّرت :

قالت أُمامَةُ يومَ بُرْقَةِ واسطٍ : يابنَ الغديرِ لقد جعلتَ تنكَّرُ
أصبحتَ بعد شبابك الغضِّ الذى وَلَّتْ شَبِيبَتُه وغُصْنُكَ أخضَرُ
شَيْخاً دِعامَتُه العَصَا ومُشَيِّعاً لا تَبْتغِي خبَراً ولا تُستَخبَرُ(١)
فأجبتُها أنْ مَن يُعَمَّرْ يَعْتَرِفْ ما تَزْعُمِين وينْبُ عنه المَنْظَرُ

يسقم الدين ويكدر الايمان ويخرج إلى الطغيان « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » . لكن هذا لا ينافى طلب العافية المأمور به فى عدة أحاديث ، لأن المطلوب عافية سليمة العاقبة مما ذكر .

وذهب بعضهم إلى أن معنى الحديث : أن حُبّ السلامة داء يمنعُ صاحبه من ركوب الغَرَر واقتحام الخطر ، فى عزّة المجد واكتساب الحمد ، محافظةً على صحته وسلامته ، والداء : العيب ، ومنه حديث أم زرع (كل داء له داء) تريد : كل عيب يكون فى الرجال فهو عيب فيه .

(١) مُشَيِّعاً : يريد قوياً بعصاه أى أن العصا تشجعه وتقويه .

ولقد رأيتُ شَبِيبَةَ ما عَيَّرَتْنِي ... يَسْرِي عَلَيَّ به الزمانُ ويُبْكِرُ
وجَعَلتُ يُغْضِبُنِي اليَسِيرُ وَمَانَنِي ... أَهْلِي وَكُنتُ مُكَرَّمًا لا أُكْهَرُ(١)
وشَرِبْتُ فِي القَعْبِ الصَّغِيرِ وَقادَنِي ... نَحوَ الجَماعَةِ مِن بَنِيَّ الأَصغَرُ

الشباب والشيب والكبر فى اللغة :

المرءُ ما دام بين الثلاثين والأربعينَ فهو شابٌّ ، ثُمَّ هو كَهْلٌ إلى أنْ يستَوْفِيَ السِّتِّينَ ، ويقولون : فُلانٌ ناهَزَ الأربعين : أو الخمسين ، وحَبالها : إذا دَنَا لَها وَلم يَبْلُغْها ، ونَيَّفَ على الخمسين وذَرَّف وأَرْقَى وأَوْفَى وأَرْبَى وارتَقَى ، كلُّ هذا : جاوَزَها وزادَ عليها ؛ فاذا استبانَت فيه السِّنُّ فهو شيخ وقيل : هو شيخٌ من خمسينَ إلى آخرِ عُمره ؟ والمُخْلِدُ : الذى أسَنَّ ولم يَشِبْ . فإذا ارتفع عن ذلك فهُوَ مُسِنٌّ ونَهْشَلٌ ، وإذا قارَبَ الخَطْوَ وضَعُف قيل : دَلَفَ يَدْلِفُ دَلَفًا ودليفًا ، ويقال للشيْخ إذا انحنى قد رَقَعَ السِّنُّ وساقَ العَنْزَ . وكذلك : قَوَّسَ وتَقَوَّسَ وهو أَقْوَسُ ، فإذا بلغ أقصَى من ذلك فهُوَ هِمٌّ ، من قَوْمٍ أهْمام ، ومثله : الهَرِمِ ، فإذا ذهب عقله فهو خَرِف . وهنالك أحرف كثيرة فى هذا المعنى لا داعِيَ لإيرادها لأنها غريبة .

ويقال للرجل أوَّلَ ما يظهرُ الشيبُ به : قد وخَطَه الشيب ، ورجل أشيب وأشْمَطُ ، ومن قولهم : شَيبٌ شائب ، يريدون المبالغة ، وشَيَّبَ الهَمُّ منلارأسه ؛ فإذا زاد قيل : قد خَوَّصَهُ الشيبُ وخصَّفَه ، وقد تَلَفَّعَ بالشيب .

---

(١) أُكْهَرُ : أُنْهَرُ .

اللحى والشوارب والصلع :

جاء فى الحديث الشريف : (أَحْفُوا الشوارب وأَعْفُوا اللحى) .

« أحفوا بقطع الهمزة ووصلها . من أحفاه وحفاه : استأصله : قال القاضى عياض : من الاحفاء ، واصله الاستقصاء فى أخذ الشارب ؟ وفى معناه . انهكوا الشوارب ، فى الرواية الأخرى ، والانهاك : المبالغة فى الشىء ، والمراد : بالغوا فى قصّ ما طال منهما حتى تتبيّن الشفة بياناً ظاهراً ، ندباً . وقيل وجوباً . أمّا حلقه بالكلية فمكروه على الأصح عند الشافعية وصرّح مالك بأنه بدعة . وأخذ الحنفية والحنابلة بظاهر الخبر فسنوا حلقه أما قوله : واعفوا اللحى فالاعفاء : أن يوفّر شعرها ويكثّر ولا يقصّ ، يقال أعفيته وعفّيته — لغتان — إذا فعلت به ذلك ، وإنما حثوا على إعفاء اللحى لأن فى ذلك جمالا للوجه وزينة للرجل وتمييزاً له عن المرأة : ومخالفة لزى المجوس أو اليهود أو المشركين » .

وكان من يمين عائشة رضى الله عنها « لا والذى زيّن الرجال باللحاء » .

قال الشريف الرضى :

رأت شعرات فى عذارى تبسمت ... كما افترّ طفل الروض عن خلع الوسمى

فقلت لها : ما الشعر سال بعارضى ... ولكنه نبت السيادة والحلم

يزيد به وجهى ضياء وبهجة ... وما تنقص الظلماء من بهجة النجم

وقالوا لا تصافنّ من لا شعر على عارضيه وإن كانت الدنيا خرابًا الا منه

ودخل رجل على قتيبة بن مسلم وكان الرجل عظيم اللحية وقتيبة خفيف اللحية ، فقال قتيبة : لقد كبرت لحيتك . فقال الرجل : والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ، فقال قتيبة : قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، وقال الجاحظ فيمن طالت لحيته : ما طالت

لحية . رجل إلاَّ تكوسَجَ عقلُه[1] وفى الحديث : من سعاده المرء خِفَّةُ لحيته (وليس هذا يناقض حديث الاعفاء فقد روى أن النبى (ص) كان يأخذ من لحيته فى طولها وعرضها .

وقد قال بعض العلماء : إنَّه لا بأسَ بأَخْذِ العارضَين ، وقد رُوى عن فقيه العراق إبراهيم بن يزيد النَّخَعى أنه كان يُبَطِّن لحيته ويأخُذَ من جوانبها قال شمر : معنى يُبَطِّنُ لحيته أن يأخذ الشعرَ من تحت الحنك والذَّقن .

وكان ابن الرومى يَسخر من اللِّحَى الطِّوال ويسميها أذنابًا وَمخالِىَ ومذبات ، وقد بلغ به الأمْرُ في ذلك إلى حدأنه كان يَشُكُّ فى أدب كُلّ غزير اللحية بل يجعل غزارَتها دليلاعلى نزارَة أدبه . حتى البحترى الذى يقول فيه :

البحترىْ ذَنُوب الوَجْهِ نَعْرِفُه ومارأيناذَنُوبَ الوَجْهذا أدَبِ[2]

ويبدو أنه كان يغالط فى هذا لأنه فيما يظهر كان يشعر بهيبة اللحية وأنها آية التذكير حيث يقول لصاحب لحية طويلة :

أَرْعِ فيها المُوسَى فإنَّك منها — يَشْهَدُ اللهُ — فى أنامٍ كبيرِ[3]

---

(١) يريد الجاحظ بتكوسج عقله : نقص عقله ، قال الأصمعى : الكوسج : الناقص الأسنان ويقال للذى لا شعر على عارضيه : كوسج وثَطٌّ . وكوسج : فارسيةٌ عربت ، قال سيبويه أصلها بالفارسية كوشة .

(٢) يقال : فَرسٌ ذنوب أى وافر شعَر الذنب ، وذنوب الوجه أىْ أن لِوَجْهِه ذنباً وافر الشعر من هذا .

(٣) أرع فيها الموسى أى اجعل الموسى ترعى فيها أى احلقها .

أيُّما كوسَج يراها فيَلقَى ... ربَّه بَعدَها صحيحَ الضَّمير[1]
هو أحرَى بأن يَشُكَّ ويُغرَى ... باتهـــام الحـكيم فى التقدير
لِحْيَةٌ أُهْمِلَتْ فسالَتْ وفاضَتْ ... فإليها تُشيرُ كَفُّ المُشير
ما رأتْها عينُ امرئٍ ما رآها ... قطُّ إلاَّ أهَـــلَّ بالتكبير
رَوعَةٌ تَستَخِفُّهُ لَمْ يُرَعْها ... مَن رأى وَجْهَ مُنكَرٍ ونَكير
فاتَّقِ اللهَ ذا الجَـــلال وغَيِّرْ ... مُنكَرًا فيكَ مُمكِنَ التَّغيير
أوْ فقَصِّرْ منها فحَسْبُكَ منها ... نِصفُ شِبرٍ عَلامَةَ التذكير

وقال أبو العَتاهِيَة :

لا تَفخَرَنَّ بِلِحْيَةٍ ... كَثُرَتْ مَنابتُها طويلَهْ
تَهْوِى بِها هُوجُ الرِّ ... ياحِ كأنَّها ذَنَبُ الحَسِيلَهْ[2]
قد يُدرِكُ الشَّرَفَ الفَتَى ... يَوماً ولِحْيتُه فَلِيلَهْ

وقال ابن الرُّومِىّ :

وَلِحْيَةٍ يَحْمِلُها مائِقٌ ... مِثلِ الشِّرَاعَينِ إذا أُشْرِعا
تَقودُه الرِّيحُ بِها صاغِراً ... قَوداً حَثِيثاً يُتْعِبُ الأخْدَعا
لَو غاصَ فى البَحْرِ بِها غَوصَةً ... صادَ بِها حِيتانَهُ أجْمَعا

وقال مروان بن أبى حفصة :

لقد كانت مَجالِسُنا فِساحًا ... فَضَيَّقَها بِلِحْيَتِهِ رَباحُ

---

(١) يريد بالكوسج : القليل شعر اللحية ، أى الذى لا شعر فى ذقنه إلا شعرات فى أسفل حنكه ، ويقال له : ثَطٌّ ، ويسميه العامة فى مصر أجرود .
(٢) الحسيلة : العِجلَة .

مُبَعْثَرَةُ الأسافِلِ والأعالى لها فى كُلِّ زاوِيَةٍ جَناحُ

وقال بعضهم :

أُنَقِّشُ لِحْيَةً عَرُضَتْ وطالت مِنَ الهدَباتِ تَمْلأُ عَرْضَ صَدْرِى
أكادُ إذا قَعَدْتُ أبولُ فيها إذا أنا لم أُعَقِّصْها بِظُفْرِى

وأورد المُبَرِّد فى الكامل لأعرابىّ :

كُلُّ امْرِىءٍ ذى لِحْيَةٍ عَثْوَلِيَّةٍ يَقُومُ عليها ظَنَّ أنَّ له فَضْلاَ

وما الفَضْلُ فى طولِ السِّبالِ وعرضِها
إذا اللهُ لم يَجْعَلْ لحامِلِها عَقلاَ

« قال المبرد : عَثوَلِيَّة : كثيرة ، قال : والمستعمل : يقال : رَجلٌ عِثْوَلٌّ : إذا كان كثير الشَّعَر ، وأصلُ ذلك فى الرأس واللحية ، وبناه الأعرابى بناء جَدْوَلٍ كأنَّهُ عَثوَلٌ ثم نَسَبَ إليه ؛ والسَّبلة : (١) مُقَدَّم اللِّحْيَة ، ويقال لِما أسْبَلَ مِن الشارِبين : سَبَلتان » .

ونظرَ يَزيدُ بنُ مَزْيد الشيبانىُّ إلى رَجل ذِى لحيَةٍ عظيمة وقد تَلَفَّفَتْ على صدْره ، فإذا هو خاضِبٌ ، فقال : إنَّكَ مِن لحيتِك فى مَئُونَة ، فقال الرجل : أجَلْ ، ولذلك أقول :

---

(١) وجمعها : سبال .

وقال صاحب القاموس : السَّبَلة — مُحَرَّكة — الدائرة وَسْط الشفة العليا ؛ أو ما على الشارب من الشعر ، أو طرفه ، أو مجتمع الشاربين ، أو ما على الذقن إلى طرف اللحية كلها ، أو مقدمها خاصة .

لَهَادِرُهُمْ لِلدُّهْنِ فِي كُلِّ جُمْعَةٍ وَآخَرُ لِلْحِنَّاءِ يَبْتَدِرَانِ[1]
ولولا نوالٌ من يَزِيدَ بنِ مَزْيَدٍ لَصَيَّحَ فِي حافَاتِها الجُلَمَانِ[2]

وقال ابن الرومي :

إذا عَرَضَتْ للفتى لِحْيَةٌ وطالت وصارت إلى سُرَّتِهْ
فنُقْصانُ عَقْلِ الفَتَى عندنا بمقدار ما زيد مِن لِحْيَتِه

وقالوا : اللحية الطويلة عُشُّ البراغيث ، ومزبلة التراب والغبار . وقال رجل لآخرَ قد مَلأَتْ لَحْيَتُهُ وَجْهَه : خَنْدِقْ على وَجهك قبل أن يجرى الماءُ فى العود فيصيرَ وَجهُكَ كلُّهُ رَأْسا ...

وقال شاعر :

إذا لِحْيَةٌ خَفَّتْ وَفَى عَقْلُ رَبِّها وَإِنْ ضَخُمَتْ لم يَحْظَ إلا بها الصَّدْرُ

ومِن طُرَفِهم فيمن ينتف لحيته — أو يحلقها — قيل لأبى عبد الله المنتوف : لِمَ تَنْتِفُ لحيتك ؟ فقال : وأنت لِمَ لا تَنْتِفُها ؟

---

(١) قبل هذين البيتين :

لَعَمْرُكَ لو يُعْطى الأميرُ على اللحى لأَلْفَيتُ قد أَيْسَرْتُ مُنْذُ زمانِ
إذَنْ لَاشْتَرَيْتُ لحيَتى من عِصَابَةٍ لهم عنده ألفٌ ولى مائتَانِ
إذا نُثِرَتْ فى يَوْمِ عِيدٍ رأيتَها على النَّحْرِ من مِائَتَيْنِ كالقَفَدَانِ

«من مِائَتَيْنِ يريد : من مأتى فرسخ ، والقفدان : خريطة العطار ، أو خريطة من جلد تتخذ للعطر » .

(٢) لصَيَّح يروى : لصوت ، والجلمان : المقصّ وانما ثنى لارادة شفرتيه ولا واحد له .

وقال ابن طباطبا فى بعض من كان ينتف لحيته :

يا من يزيل خلّةَ الرحـــــن عمّا خُلِقَت
هل لك عُذرٌ عنده إذا الوحوش حُشرَتْ
فى لِحْيَةٍ إن سُئِلَتْ بأىِّ ذنبٍ نُتِفَتْ

وقال آخر :

إن كان (باللقاط) يحصد نبتها فيَدُ الليالى من وراه تزرع

وقيل لمخنث . لمَ تنتف لحيتك وهى من هِبَة الله ؟ فقال . إن الله تعالى أَمَرَنى بذلك فقال (وإذا حُيِّيتُم بتحية فحَيُّوا بأحسن منها أو رُدُّوها) ولم أجد أحسن منها فرَدَدْتُها .

وقيل لآخر : لمَ تَنْتِف لحيتك وقد زَيَّن الله بها وجهك ! فقال . أتُحِبُّ أنْ يُزَيِّنَ بها فقحتَك ؟ قال . لا ، قال . ما لا تُحِبُّ أن يَطلُعَ فى أستِكَ كيف استَصلِحُه لِوجْهى !

* * *

ومن عبقرياتهم فى الصلع قول الخليل بن أحمد . كانَ الشريف إذا لم يصلع نَتَفوا شعرَه تشبيهاً بذلك .

وأُنشِدَ العُتْبىُّ .

قدحصَّ رأسى فتيتُ المِسْكِ أخلطهُ بالعنبر الوَرْد حتَّى ما به شعَرُ

فقال . لشتان ما بينه وبين أبى قيس بن الأسلت فى قوله .

قد حصَّتِ البَيْضَةُ رأسى فما أطْعَمُ نَوْماً غير تَهْجاعِ[1]

---

(١) التهجاع : النومة الخفيفة .

«حَصَّ شَعَرُه : انجرد وتناثر وذَهب ، والبَيضَةُ : واحِدَةُ البَيض من الحديد ، يريد ابن الأسلت أن البيضة لا تفارقه لطول ممارسته الحروب حتى إنها ذهبت بشعره ، ويريد العتبي أن فُرِقاناً كبيراً بين من ذهب شعره من طول الدهن بالطيب ومن ذهب شعره من طول لبسه المغفر والحديد ، فذاك رجل مُتْرَفٌ وهذا رجل مِحْرَب » .

وأَلَحَّ رجل النظر إلى عليّ بن أبي طالب ، فقال له إلى أيّ شيء تنظر ؟ فقال . إلى بطن مُنْدَحٍ [1] وهامَة صلعاء ، فقال عليّ : أما البطن فأسفله طعم وأعلاه علم ، وأما الهامَة فكما قال الشاعر :

بَنَى لنا المجدَ آباءٌ لَهُم شَرَفٌ صُلْعُ الرُّءوس وسيما السُّؤْدُدِ والصَّلَعُ

يُروَى أَنَّ الأَبْرَش الكَلْبيَّ دخل على هشام بن عبد الملك وحَجَّام يحجمه فَمَسَّ رأسه فقال : يا أبرش ، ما صُلِعَ لَئيم قط ، فكشف رأسَ الحجّام فإذا هو أصلع ، فقال : أَمِنْ كَرَمٍ صُلِعَ هذا !

وقالت امرأة لزَوجها — وكان أصلع — : لَستُ أُغبط إلا شعرك حيث فارقك فاستراح منك !

وكانَ للخليل بن أحمد واضع علم العَرُوض صَديق يكنى أبا المُعَلَّى مولًى لبني يشكُرَ ، وكان أصلَع شَديدَ الصَّلَع ، فبينا هو والخليل جالسان عند قَصْر أَوْس إذ مرَّت بهما امرأةٌ يقال لها أُمُّ عُثمان من ولد المُعارك بن عثمان ومعها بناتٌ لها ، فقال أبو المعلى للخليل : يا أبا عبد الرحمن ، ألا تُكَلِّم هذه المرأة ؟ قال : ويحك ؟ لا تفعل ، فإنهن أعدُّ شيء جَوَاباً ، والقولُ إلى مِثلك يُسْرِعُ

---

(١) اندحَّ بطن فلان اندحاحا : اتسع من البطنة ، انداح بطنه انديا حا : إذا انتفخ وتَدلى من سمن كان ذلك أو علة .

فجلسن يتروحن فقال لأمهن : يا أمة الله ، ألكِ زوجٌ ؟ قالت : لا والله ولا لواحدة منا ، قال : فهل لكنَّ فى أزواج ؟ قالت : وَدِدنا والله ، قال : فأنا أتزوجك ويتزوج هذا إحدى بناتك ، فقالت له : أمَّا أنتَ فقد ابتلاك الله ببلاءين : أما أحدهما فإنه قد قَرَعَ رأسَكَ بمسحاةٍ ، وجعل لك عِقْصَةً فى قفاك بيضاء[1] ، فكأنما صارت فى قفاكَ نُخَامَةً ، فبَلِغَ من نُوكك أنك خَضَبْتَها بحُمْرَةٍ ، فلو كُنْتَ إذ ابتُليتَ خَضَبْتَها بسواد فغطَّيت عوارَك هذا الذى أبداه منك ! ثم قالت له : أظنك من رَهْطِ الأعشى ، فقال لها أبو المعلى : أنا مولَى لبنى يشكرَ ، قالت : أفتروى بيت الأعشى :

وأنكرتنى وما كان الذى نكرتْ ... من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَّلَعا

فما بَقِى بعد الشَّيب والصلع إلاَّ أنْ تَلْمَقَ الزُّبد أو تموتَ هُزالاً ، ثم التفتتْ إلى الخليل فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الخليل بن أحمد ، كُفِّى رحمك الله : فقد والله نَهَيْتُه عن كلامك وحَذَّرْتُه هذا ! قالت : أما إنكَ قد نصحتَ له ، أما علم هذا الأحمقُ أن النساء يَخْتَرْنَ من الرجال المُسْحُلانِىّ[2] المَنْظَرانِىّ المَخْبَرانِىّ ، الغليظ القصرة ، العظيم الكَمَرة ، الذى إذا طَعن فأصاب جَفَر ، وإذا أخطأ قَشَر ، وإذا أخرجه عَقَر ؛ قال : فضحك الخليل ، ثم قامت المرأة ومعها بناتها يَتَهادَيْنَ فتمثَّل أبو المعلى بقول عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

---

(١) العقصة : الخصلة من الشعر .

(٢) المسحلانى : الطويل الحسن القوام ؛ والمنظرانى : ذو المنظر والرواء والهيئة والمخبرانى : ذو المخبر الحسن .

فتهادَينَ وانصَرَفـــنَ ثِقَالَ الحقائبِ

فقالت : يا أحمق ، أما تروى ما قال الشاعر فى قومك ؟ قال : لا ، فقالت : قال :

ويشكُرُ لا تستطيع الوِناء وتَعْجِز يَشْكر أن تَغْدرا

وإنى أُقسم بالله لو كان لكل واحدة منا مِنَ الأَخْراح بعدد ما أهدى مالك العُكْلى إلى عَمْرة بنت الحارث النُّمَيْرى ، ما أعطيناك ولا صاحبَك منها شيئاً ، فقال : الخليل أنشدتُكَ بالله ، كم كانت الهديَّةُ التى أهداها العكْلِىّ إلى النُّمَيْرية ؟ قالت له : أراك حاذقاً بالتَّجْميش[1] قليل الرواية للشِّعْر ، ثم أنشدته قول العكْلىّ :

هديَّتِى أختَ بنى نُمَيْر لحِرْكِ يا عَمْرَةُ ألفُ عَيْرِ
فى كل عير ألف كُرٍّ أيْرِ

قال : فقال الخليل : أما إنَّه قد قصَّر ! أفلا جَعَل لاسْتِها بعضَ الهديَّة ولم يَدَعْها فارغة ! قالت : قد أشفَق على هديته أن تحترق ، ألم تَرْوِ ببيتَ جرير حيث يقول :

ولو وضِعَتْ فِقاحُ بنى نُمَيْرٍ على خبَثِ الحـــديد إذاً لذابا

فقال الخليل لأبى المعلى :

نصحتك يا محمـــد إنَّ نصحى رَخيصٌ يا رفيقى للصَّديقِ
فلم تَقْبَلْ وكم من نُصْح وُدٍّ أضيعَ فحادَ عن وَضَح الطريقِ

---

(١) التجميش : المغازلة ومحادثة النساء .

قال : ثم انصرفت المرأة وبقى الخليل وأبو المعلى متعجّبين منها ومن ذَرَابَة لسانها وسرعة جوابها .

وإليك أرجوزةً لأبى النّجم :

قَدْ أَصبَحَت أُمُّ الخِيارِ تَدَّعى عَلَىَّ ذَنبًا كُلُّهُ لم أَصْنَعِ
مِنْ أَنْ رأت رَأسِى كرَأسِ الأصلَعِ
مَيَّزَ عنـــه قُنْزُعًا عَن قُنْزُعِ
جَذْبُ اللياليَ : أَبْطِئِى أوأسْرِعى قَرْنًا أَشِيبِيهِ وقَرْنًا فانزَعِى
أَفْنَاهُ قِيلُ اللهِ للشَّمْسِ اطْلَعى حتَّى إذا وارَاكِ أُفْقٌ فارْجِعِى
يا ابْنَةَ عَمًّا ، لا تَلُومِى واهْجَعِى لا يَخْرِقُ اللومُ حِجابَ مَسْمَعِى
أَلَمْ يَكُنْ بَيْضٌ إنْ لم يَصْلَعِ إنْ لم يُصِبْنِى قبلَ ذاكَ مَصْرَعِى
لا تُسْمِعِينى منكِ لَومًا واسْمَعِى أَيْهاتَ أَيْهاتَ فـــلا تَطَلَّعِى
هى المقادِيرُ فَلُومِى أَوْدَعِى لا تَطْمَعِى فى فُرْقَتِى لا تَطْمَعِى
وَلاَ تُرَوِّعِيـــنِى لا تُرَوَّعِى واسْتَشْعِرِى اليأسَ ولا تَفَجَّعِى
فذاكِ خيرٌ لكِ مِن أنْ تَجْزَعِى فَتُحْبِسِى وتُشْتَمِى وَتُوجَعِى

«ام الخيار هى زوجة أبى النجم ، وكله تُقرأ بالرفع وبالنصب — انظر كتب النحو والبيان — ومن أن رأت أى من أجل أن رأت ، يقول أبو النجم : إنَّ زَوجتى أصبحت تَدَّعى علىّ ذنبًا — وهو الشيب والصَّلَعُ والعَجْزُ وغير ذلك مما تَسْتَتْبِعُهُ الشيخوخة مع أننى لم أصنع شيأ من ذلك الذنب ، ثم قال : وهذا الصلع ميَّزَ — أى فَصَلَ عنه — أى عن راسى قُنْزُعًا بَعْدَ قنزع جَذْبُ الليالى أى مُضِيُّها وكَرُّها ، والقنزع والقنزعة : الشعر حولَ الرأس والخصـــلةُ من الشعر تترك على رأس الصبى وعَنْ قنزع أى بَعْدَ قنزع ، وأبْطِئى أو أسْرِعى حال من الليالى على تقدير القول ، ويجوز أن يكون منقطعاً أى اصنعى

أيتها الليالى ما بدا لك فلا أبالى بعد هذا ، ثم قال يخاطب الليالى : قَرْناً أشيبه وقرناً فانزعى ، والقرن : الخصلة من الشعر ، ويقال أشابَ الدهر أو الهمُّ رأسَه : شَيَّبَهُ ، وانزعى من النزَع وهو انحسارُ الشعر عن جانبىَ الجبهة ، ثم قال أفناه قيل الله للشمس اطلعى فالضمير فى أفناه لأبى النجم أو للشعر ، وقيلُ الله : أمره ، ويا ابنة عَمًّا أصله : يا ابنةَ عمى ، وبيَضٌ أى الرأس ، وأيهات أيهات لغة فى هيهات — أى بَعُدَ — وتطلعى بحذف إحدَى التاءين أى تتطلعى ، واستشعرى يريد أضْمِرى يقال : استشعر خوفاً يراد أضْمَرَ » .

ومِن أبيات الحماسة — حماسة أبى تمَّام — :

أَلاَ قالت العَصماءُ يومَ لَقِيتُها ... أراكَ حديثاً ناعِمَ البال أفْرَعا
فقلتُ لها : لا تُنْكِرِينى فقلَّما ... يَسُودُ الفتى حَتَّى يشيبَ ويَصْلَعا
وَلِلْقارِحُ اليَعْبوبُ خَيْرٌ عُلالَةً ... مِنَ الجِذْعِ المُرْخَى وأبْعَدُ مَنْزَعا

« العصماء : امرأة ، والحديث هنا نقيض القديم وهو ظرف ، يقول : قالت لى هذه المرأة لمَّا التقيت معها : أعْلَمُكَ عن قريب ناعِمَ الحال أفرعَ — أى تامُّ شعَرِ الرأس ، لم يتسَلَّطْ صَلَعٌ ولا حَدَثَ انحسارُ شَعْر ، فكيف تغيَّرْتَ مع قُرب الأمد ، ثم قال : فقلت لها لا تستنكرى ما رأيت من شُحُوب لونى وانحسار شعَر رأسى ! فما ينالُ الفتى السيادَةَ حتى يستبدلَ بشَبِيبَتِهِ شيبا وبوُفُور شعر رأسِه صَلَعا ، ثم قال يُفَضِّل نفسه مع شيخوخته وقد حنَّكه الدهر على الأحداث الذين لم يجرِّبوا الأمور : إنَّ الفَرَس المتناهى فى السِّن والقُوَّة الذى يجرى جِرْيَةَ الماء سُهولَةً ونفاذاً خيرٌ بقاء وأبعدُ غايَةً من الحَدَث وهو مُهمَلٌ لم يُؤَدَّب بإسراج ولا لجام ، فالقارح من الخيل بمنزلة البازل من الابل ، وهو الذى تمَّت واستحكمت قُوَّته ، واليعبوب : الفرس الكثير الجرْى ، والجذع ماله سنتان ، والعُلالة : بقية الجرى والمراد به هنا : الجَرْى ، والمُرْخَى : الذى يُرْخَى فى سَيره قليلا قليلا لا يكلف أكثر من ذلك ، ويروَى المُرْخِي والإرخاء : لِينٌ فى الجَرْى ، والمَنْزَعُ : النزوع إلى الغاية » .

وقالَ ابنُ الرومي يصفُ الصَّلَعَ :

يأخُذُ أعْلى الوَجْهِ من رأسه أخْذَ نهارِ الصيفِ من لَيْلِهِ

وقال بعضُهم :

جزِعتُ للشَّيب لمَّا حلَّ أوَّلُهُ فجاءني حادثٌ أنْسانِيَ الجزعا

هَبِ المشيبَ يُداوِي الخطْبُ شائِمَهُ

فكيفَ لِي بدواءٍ يُذْهِبُ الصَّلَعا

وبديعٌ قولُ أبي النجم :

قالتْ سُلَيْمَى . أنتَ شَيْخٌ أنزَعُ فقلتُ ما ذاكَ وإنِّي أصْلَعُ(١)

ثمَّ حَسَرْتُ عن صفَاةٍ تَلْمَعُ فاقْهَلَتْ قائِلَةً تَسْتَرْجِعُ(٢)

ما رأسُ ذَا إلاَّ جَبِينٌ أجْمَعُ

ومثله : قولُ رؤبة :

قد تركَ الدهرُ صَفَاتِي صَفْصَفَا(٣) فصارَ رَأْسِي جبهةً إلَى القَفَا

كأنَّما قَدْ كانَ رَبْعاً فعفَا يُمْسِي ويُضْحِي للمنايا هَدَفَا

وقد كان أبو النجم العجْلي أحد رُجَّازِ العرب الفحول ، ومن طريف

---

(١) أنزع من النَّزَع (بالتحريك) وهو انحسار مقدم شعر الرأس من جانبي الجبهة وأصلع من الصلع وهو ذهاب شعر الرأس كله أو ذهاب وسطه .

(٢) الصفاة فى الأصل : الصخرة الملساء شبه بها رأسه ، وتسترجع : تقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٣) صَفْصفا : على المثل بالقاع الصفصف وهو الأملس لا نبات فيه .

أخباره ما رواه المبرد فى الكامل وأبو الفرج فى الأغانى ، وهو مما يتصل بموضوع هذا المعجم وإن لم يكن هذا مَوْضعَهُ ، قالا :

أَنْشَدَ أبو النجم هِشامَ بنَ عبد الملك أُرْجُوزتَه التى مطلعها :

« الحمدُ لِلّهِ العَلِيِّ الأَجْلَلِ » حَتَّى إذَا بَلَغَ قَوْله فى صِفَةِ الشَّمس :

حَتَّى إذَا الشمسُ جلاَهَا المجتَلِي ... بين سِماطَىْ شَفَقٍ مُرَعْبَلِ (١)

صَفْوَاءُ قد كادَتْ ولمَّا تَفْعَلِ ... فهى عَلَى الأفق كعين الأحْوَلِ (٢)

غَضِبَ هَشَّام — وكانتْ عَيْنُ هشامَ حَوْلاء ، وقد ذهَبَ الرَّوِىُّ بأبى النجم عن الفكر فى عين هشام — فأمرَ هشام بطرْدِه ، فأمَّلَ أبو النجم رَجْعَتَه ، وكانَ يأوى المساجد ، فأرِق هشام ليلةً ، فقال لحاجبه : أبْغِنِى رَجُلاً عَرَبِيًّا فصيحاً يحادِثُنِى وينشِدُنِى ، فطَلَبَ له ما طلب ، فوقَفَ على أبو النجم فأتى ، فلما دُخِلَ به إليه ، قال : أينَ تكونُ منذ أقصَيناكَ ؟ قال : بحيثُ ألْفَتْنِى رُسُلُكَ .

قالَ : فمنْ كانَ أبا مَثْوَاكَ (٣) ؟ قال : رجُلَيْن : كَلْبِيًّا وتَغْلبِيًّا أتَغَدَّى عند أحدهما وأتعشَّى عند الآخر ، فقال له : مالكَ من الولد ؟ قال : ثلاثُ بَنَاتٍ وبُنىٌّ ، فقال له : هل أخرَجْت مِنْ بناتك ، قال : نعم ، زوَّجتُ اثنتَين وَبَقِيتْ

---

(١) السماطان : الجانبان ، والمرعبل : المقطع .

(٢) صفواء : من صفت النجوم : إذا مالت للغروب ، يقول : كادت تغيب .

(٣) يقال لرب البيت وربة البيت اللذين ينزل بهما الضيف : هى أم مثواه وهو أبو مثواه ، وفى القرآن الكريم (أكرمى مثواه) معناه عند العرب : إضافته .

واحدةٌ تجمزُ فى أبياتنا — بيوتنا — [1] كأنها نعامةٌ ، قال : فما وصيَّتَ به الأولى ؟ وكانت تسمَّى برَّة قال :

أوصيتُ من برَّةَ قلباً حُرًّا ... بالكلبِ خيراً والحماةِ شرًّا [2]
لا تَسأمى ضرباً لها وجرًّا ... حتى يَرَوا حلوَ الحياةِ مُرًّا
وإن كسَتْكِ ذهباً ودُرًّا ... والحىُّ عُمِّيهم بشرٍّ طُرًّا

فضَحِكَ هشام وقال : فما قُلتَ للأخرى ؟ قالت : قلتُ :

سُبِّى الحماةَ وابهَتِي عليها ... وإن رنَتْ فازدَلِفِي إليها [3]
وأوجعى بالفِهر رُكبتيها ... ومرفقَيْها واضربى جنبيْها [4]
لا تُخبِرى الدَّهرَ بذاكِ ابنيْها

فضَحِكَ هشام حتَّى بدَتْ نواجِذُه ، ثم قالَ : ما قلتَ فى الثالثة وفى تأخير تزويجها ؟

قالَ : قلت :

كأنَّ ظَلاَّمَةَ أُختَ شَيبانْ ... يَتِيمَةٌ ووالداها حَيَّانْ

---

(١) تجمز بكسر الميم : تعدو وتسرع .

(٢) قال المبرد : قوله بالكلب خيراً والحماة شراً كلام معيب عند النحويين وبعضهم لا يجيزه وذلك أنه عطف على عاملين بالباء وعلى الفعل

(٣) وابهتى عليها يريد : ابهتيها فضمَّنَهُ معنى اكذبى فعداه بعلى إذ لا يقال بهت عليه وإنما يقال : بهته إذا قال عليه ما لم يفعله ، ويروى بدل ابهتى عليها : انهتى عليها بالنون من النهيت وهو صوت الأسد دون زئيره ، وازدلفى إليها : أى تقربى .

(٤) الفهر = الحجر .

الجيدُ منهـــا عُطُلٌ والآذانْ ولیس فی الرِّجلین إلا خَیْطانْ

فهی التی یُذعَرُ منها الشیطانْ

فقال هشام لحاجبه : ما فعلت بالدَّنانیر المختومة التی أمرتك بقبضها ؟ قال : ها هی عندی ووزنها خمسمائة ، قال : فادفعها إلی أبی النجم لیجعلها فی رِجْلَیْ ظلامة مکانَ الخیطینِ .

* * *

وَمِنْ مُلَحِ أبی النجم — وهی مما یَمُتُّ إلی موضوعنا بسبب واصل — أنه دخل عَلَی هِشام بن عبد الملك وقد أتت له سبعون سنَةً ، فقال له هشام : ما رأیك فی النساء ؟ قال . إنی لأنظرُ إلیهم شَزْرًا وینظرون إلیَّ خَزْرًا[1] فوهب له جاریةً وقال له . اغْدُ علیَّ فأعْلِمْنی ما کان منك ، فلما أصبح غدا علیه ، قال له . ما صنَعْتَ ؟ فقال . ما صنعتُ شیئًا ولا قَدَرْتُ علیه ، وقد قلتُ فی ذلك أبیاتًا ، ثم أنشَدَهُ .

نَظَرَتْ فأَعْجَبَها الذی فی دِرْعِها مِنْ حُسْنِهِ ونَظَرْتُ فی سِرْبالِیا

فَرَأَتْ لها کَفَلاً یَمِیلُ بِخَصْرِها وَعْثًا رَوادِفُه وأَجْنَمَ جانِیا[2]

ورأیتُ مُنْتَشِرَ العِجانِ مُقَلَّصًا رِخْوًا مَفاصِلُهُ وجِلْدًا بالِیا[3]

---

(١) الشزر : النظر بجانب العین فی إعراض ، والخزر : أن یکون الإنسان کأنه ینظر بمؤخر عینه .

(٢) الوعث : الاین ، ویرید بالأجنم فرجها .

(٣) العجان : القضیب الممدود من الخُصْیة إلی الدُّبر .

أُدْنِى لهالرَّكَبَ الخليقَ كأنما ... أُدْنِى إليه عَقارِبًا وأفاعيا[1]

إنَّ النَّدامَةَ والسَّدامَةَ فاعْلَمَنْ ... لَوْ قد صَبَرْتُكَ للهَوامِى خاليا

ما بالُ رَأْسِكَ مِن ورائى طالِعًا ... أظَنَنْتَ أنَّ حِرَ الفَتاةِ وَرائيا

فاذْهَبْ فإنَّكَ مَيِّتٌ لا يُرْتَجى ... أبَدَ الأبيدِ ولَوْ عَمَرْتَ لَيَاليا

أنت الغَرُورُ إذا خُبِرْتَ وَرُبَّما ... كانَ الغَرُورُ لِمَنْ رجاهُ شافيا

لكنَّ أيْرِى لا يُرَجِّى نَفْعُهُ ... حَتَّى أعُودَ أخافَتاءَ ناشِيا[2]

فضحك هشَّام وأمر له بجائزة :

الصلع فى اللغة :

إذا انحَسَرَ الشَّعَرُ عَن جانِبَى جبهةِ الرجل فهو أنْزَعُ ، فإذا زادَ شيئا فهُو أجْلَحُ ، فإذا بَلَغَ الانحسارُ نِصْفَ رأسِهِ فهو أجْلَى وَأجْلَهُ ، فإذا زاد فهو أصْلَعُ ، فإذا ذهَبَ الشعَرُ كُلُّهُ فهو أحَصُّ ، قال الثَّعالبى فى فِقه اللغة (والفرق بين القَرَع والصلع أنَّ القَرَع ذهابُ البشَرَة ، والصلع ذهاب الشعرِ منها) .

فائدة :

قال ابن سينا :

لا يَحْدُثُ الصلع للنساء ، لكثرة رُطوبَتِهِنَّ ، ولا للخصْيان ، لقرب أمزجتهم من أمزجَة النساء .

---

(١) الرَّكَبُ : الفرج .

(٢) الفَتَاء = الشباب .